Arab_Books

محمد حيّاوي

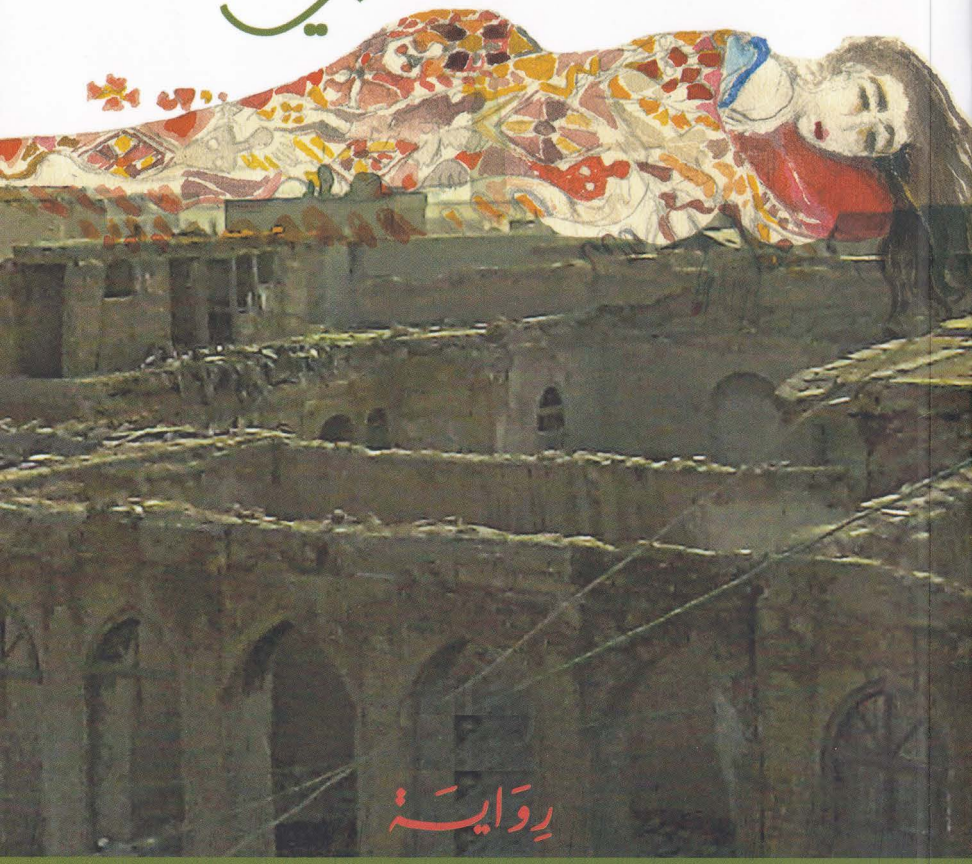

رِوَايَة

خانُ الشّابندر

دار الآداب

خان الشابندر

محمد حيّاوي

خان الشابندر

رواية

دار الآداب ـ بيروت

خان الشابندر
محمد حيّاوي / مؤلِّف عراقيّ
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-505-5

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

جسدي طازجٌ مثل أوراق الحنّاء..

أخضر من الخارج، لكنَّه لحم نيئ من الداخل!

رحيلة موسكا

(شاعرة أفغانيّة شابّة قتلها رجال طالبان)

ولكن.. إليك الحقيقة. لقد خُلقنا في هذا العالم لنشهد سلسلة من المسرّات الطويلة والآلام المتناسخة.

شيء يشبه الخروج المتناوب من الظُّلْمَة إلى النّور ثم إلى الظُّلْمَة ثانية، حتى نمضي بحنق ونحن ننتحب، إذ ليس من السهل ترك الحياة مستعرة خلفنا. تلك الحياة التي أفقدتنا الوصايا متعتها. سعينا المحموم لبلوغ الكمال أفقدنا تلك المتعة في المحصّلة، حتى لحظة التحليق بعيدًا بأجنحة الجفول، لتبدو الأرض الضاجّة بالمتغيِّرات تحتنا، بعيدة وغريبة، ولا ننتمي إليها بعد تلك اللحظة.. اللحظة التي سنكتشف فيها خسارتنا، أو خديعتنا، هي نفسها اللحظة التي سنكتشف فيها أيضًا أنَّنا لن نعود كما كنّا أبدًا.

ـ إن أحببتنا، ولو لبعض الوقت، لن نتركك تغادر سالمًا.

قالت هند ذات ليلة ضاجّة بالقُبل وانفجارات القنابل المُدوِّية

تلك العبارة، قبل أن تردف:

ـ لكنَّنا سننقذ روحك من الغرق والتحطّم.

ـ أيّ غرق؟

ـ الغرق في الحياة الفاسدة حيث يلتهم عقلك روحك.. لكنْ، مع ذلك سنحبّك كما لم يفعل أحد من قبل.. وسنحدِّثك عن القِصص والحكايا.

ـ أيّة قِصص؟..

ـ القِصص التي لم يسمع بها أحد من قبل، أو لم يرغب أحد بسماعها.. سنفتح لك كنوز صدورنا الحانية، ونأخذك إلى آخر الخيال.. قبل أن نعيدك سالمًا إلى الأرض!

سنحرسك في الليالي الحالكة حتى من دون أن ترانا.. لكنْ إحذر! لأنَّك لن تعود إلى طبيعتك السابقة على الإطلاق.. فاستعدّ واترك تخاذلك وجبنك، وتهيّأ لاحتراق روحك في كانون محبّتنا الموجعة.. فبعد تلك الساعة، لن تعود كما كنت ولن تعود الحياة كما عرفت.

* * *

اجتزنا أوَّل الأمر أزقَّة ضيِّقة تملأها الأزبال وأنقاض البيوت المُهَدَّمة.. ثم سرعان ما صرنا نخترق خرائب آيلة للسقوط وبقايا بيوت بغداديّة قديمة هدَّها الزمان، فاتّكأت على بعضها بعضًا في مشهد مرعب.. وسرعان ما حجبت عنّا تلك الهياكل نور الشمس. وبين الفينة والأخرى، يُطالعنا رجل ما أو امرأة تحمل قِدرًا.. يخرجون فجأة من الزوايا المُظلِمة ويَدخلون في فتحات أو أبواب غير مرئيّة، كما لو كانوا أشباحًا! انتابني الشكّ أوَّل الأمر، وتزايدت مخاوفي من تلك الأمكنة.. لكنَّ صاحبي أبدى دراية ومعرفة متناهية، أو على الأقلّ هكذا أوحى إليَّ.. الأمر الذي بعث بعض الطمأنينة داخلي. وفي عطفة مفاجئة، وجدنا أنفسنا في زقاق ضيِّق ومُظلِم لا يؤدِّي إلى شيء، سوى إلى باب خشبيّ قديم يعتلي دكّتين مُهَدّمتين.. دفع صاحبي الباب الموارب بثقة، وولج في الدهليز. تردّدت في الدخول.. لكنَّه صاح بصوت

مرتفع، ربّما لُيسمِع أهل المنزل!

ـ تفضَّل أستاذ، تفضَّل.. الجماعة هنا أهل كيف وضيافة..

سقط الأمر بيدي، واضطررت للولوج.. في نهاية الدهليز، طالعتنا ستارة متهرئة، ما إن أزحناها حتى انكشف أمامنا حوش واسع تحيطه مجموعة من الحجرات المعتمة، وتناهت إلى أسماعنا أصوات نساء يضحكن ورجال يتناقشون في السياسة.. وسط الحوش حوض إسمنتيّ ينتصب فوقه صنبور ماء مربوط بخرقة. بينما قطعت فضاء الباحة مجموعة متقاطعة من حبال نشر الغسيل. وفي الزاوية طبَّاخ نفطي مُسخّم، ومقلاة ما زالت عليها آثار بيض مقلي وطماطة.. وقفت مُنذهلاً وسط الحوش، تعتريني الدهشة والحرج.. هتف صاحبي بصوت عال:

ـ أمّ صبيح.. يا أمّ صبيح..

وبعد برهة، أطلَّت فتاة شابَّة برأسها من خلف إحدى الستائر.. كانت تخفي جسمها خلف الستارة التي تلفَّعت بها، وظهر رأسها من بين ظلْفتي الباب.. عينان واسعتان وبشرة سمراء ناعمة وشعر فاحم طويل يغطّي كتفيها وصدرها.. كانت تبتسم لنا، وثمَّة «خال» على جانب حنكها، لا أدري إن كان حقيقيًّا أم مصنوعًا بقلم الكحل.. لكنَّها كانت جميلة ونظيفة.. الأمر الذي شكّل تناقضًا في المشهد المحيط بظهورها المفاجئ، حيث الستائر العتيقة والطناجر المُسخّمة والأحذية الموحلة المتناثرة في الباحة.

ـ يا هلا.. يا هلا.. زارتنا البركة.

هتفت الفتاة، ثم اختفت خلف الستارة، ونادت بصوت طفولي:

ـ عمّتي أمّ صبيح.. أتوكِ ضيوف!

بقيت أنتظر برهة وأنا مندهش أتطلّع لمحتويات الباحة الغريبة.. ومن خلال العتمة، لمحت شبح امرأة خطفت في غرفة مجاورة وصوت أغنية شعبيّة ينساب من مكان ما.. وفجأة اندلق باب الغرفة الأخرى لتخرج علينا أمّ صبيح مهلّلة ومرحِّبة..

ـ ياهلا ومرحبا.. يا هلا بالضيوف..

كانت امرأة ضخمة في العقد الخامس.. ممتلئة الجسم ببشرة بيضاء وعينين كحيلتين، ترتدي ثوبًا طويلاً من القطيفة الحمراء مُوَشّى بتطريزات ذهبيَّة، وما زالت تعدّل من وضع فوطتها المزركشة.. عندما اقتربت منِّي، شممت رائحة عطر قويّة.. صافحتني بيد غليظة تَرنّ من حولها أساور ذهبيَّة. نظرتْ إلى هيئتي مستغربة. وشعرتُ من نظرتها بأنّني لا أشبه هيئات زبائنها المعتادين، من عُمَّال ورشات النجارة القريبة وبائعي العتيق والخردة التي تنتشر دكاكينهم في المنطقة.

ـ الأستاذ أوَّل مرَّة يشرّفنا؟!. لَم أره من قبل..

ـ نعم.. أقصد لا لا.. هو مقيم في الخارج، ورغب برؤية البيت.. بادر صاحبي منقذًا الموقف!

ما زالت المرأة تنظر إليَّ بإعجاب تخالطه الريبة والفضول.. خرجت الفتاة الشابَّة ووقفت خلف أمّ صبيح وهي تنظر إليَّ بفضول أيضًا، قبل أن تسحبها أمّ صبيح من ذراعها وتدفعها نحوي..

ـ أنظر إلى هذه الغزالة.. ألا تعجبك!! أنظر.. أنظر..

وربتت على بطن الفتاة التي بدت خجلة.

ـ هل رأيت من قبل بطنًا مخسوفة كهذه؟..

أبعدت الفتاة يد المرأة عن بطنها وهي تداري خجلها.. أمّا أنا فتلعثمت ولا أدري بِما أُجيب.. لكنَّ صاحبي تدخَّل في الوقت المناسب..

ـ قلنا الأستاذ جاء ليرى البيت يا أمّ صبيح..

لكنَّ أمّ صبيح واصلت عرضها، كما لو أنَّها لم تسمع تعليق صاحبي:

ـ أمّا إذا كنت تبحث عن الكاشان، فخالتك موجودة..

وضربت على صدرها الكبير.

ـ شكرًا.. شكرًا يا أمّ صبيح..

قلت متلعثمًا وأنا أنظر لصاحبي كي ينقذني من الإحراج.. لكنَّه ظَلّ ساكتًا هذه المرَّة على غير عادته.. وفجأة، تقدّمت الفتاة الشابَّة دافعة أمّ صبيح برفق، وأمسكت بيدي وقادتني إلى الغرفة.

ـ دعي الرجل وشأنه.. يقول لك إنَّه لا يريد الجنس.. لِمَ الإلحاح يا خالة!

كانت يدها ناعمة وصغيرة ورطبة.. وما إن دلفنا الغرفة نصف المُعتمة حتى لاح جسدها الرشيق في نور المصباح الوحيد الذي لا يكاد يضيء.. كانت ترتدي بدلة رياضيّة ضيِّقة جَسَّدَت تقاطيع جسدها الفاتن، بينما نثرت شعرها الأسود الطويل على كتفيها وصدرها.

ـ أنظر.. هذه غرفتي.. ما رأيك فيها؟.. سألت بغنج.

ـ حلوة.. مثلك..

كانت جدران الغرفة موشَّاة بصور لممثِّلات أجنبيّات نصف عاريات، وسجّادة حائطيّة منقوش عليها لوحة لأحد المستشرقين، تظهر فيها فتاة عارية الصدر تتمدَّد في حضن رجل أسود وثمَّة أَسَدٌ جاثم عند قدميها..

ـ اجلس عيني.. خُذ راحتك..

لم يكن في الغرفة ثمَّة مقاعد أو أريكة. لا شيء في الحقيقة سوى سرير صغير مغطّى بملاءة من الفرو. جلستُ على طرفه وأنا أتفحّص محتويات الغرفة.. خزانة خشبيّة قديمة مُعلَّق عليها بعض الملابس النسائيّة، ورائحة عطر تعبق في جوّ الغرفة..

ـ أنا لم أتِ كي أمارس الجنس.. ألا تصدَّقين ذلك؟

ـ نعم. أنا أصدِّقك.. فشكلك لا يشبه هؤلاء الذين يأتون لطلب المتعة، لكنَّك لا تستطيع أن تنكر إعجابك بي.. أنا رأيتك كيف تنظر إلى صدري!

ـ ومن يستطيع أن لا يُعجب بكِ؟ أنت فتاة شابَّة وجميلة جدًّا..

ـ إذن لماذا يا عيني؟.. دعني أغلق الباب.

ـ لِمَ تصرِّين على ذلك؟.. من أجل المال؟..

ـ لا، والله العظيم..

ردَّت بجدِّيّة مفاجئة.. ثم أردفت:

ـ لا أدري.. أنت مختلف كلِّيًّا عن هؤلاء الذين يأتون إلينا، وأحببت أن أجرِّب..

ـ أنتِ جميلة ومغرية ورائعة! صدِّقيني.. لكنِّي لا أستطيع..

ـ لِمَ لا تستطيع؟ سألت بجزع.. ثم أضافت مبتسمة:

ـ لا يْكون تستحرمْ..

ضحكتُ.. فلفَّت جسدها بحركة رشيقة تاركة شعرها المنفلت يغطّي وجهي.. وأدركت كم هي مغرية وناعمة حقًّا!

ـ تساهل يا رجل.. ما بك؟

قالت بغنج، وهي تضع يدها فوق كتفي..

ـ كم تطلبين عادة؟..

سألتها بطريقة ساذجة.. فأطلقت ضحكة صادحة، وظلَّت تكركر فترة طويلة.. ثم قالت وهي تغالب الضحك:

ـ أها.. أنت تفكِّر في السعر إذن.. ها؟!.. الآن عرفت. حسنًا.. إذا كان تردّدك بسبب المال، فليس هناك مشكلة.. لن أتعاطى منك أيّ مبلغ.. اتّفقنا؟.. لكنْ، امنح أمّ صبيح خمسة وعشرين حتى أتحاشى تأنيبها..

ـ لا، لا، أنتِ لم تفهمي قصدي! أنا سأنقدك المبلغ الذي تطلبينه عادة مقابل أن تقوديني في جولة على الغرف الأخرى..

تسمّرت الفتاة، وهي تُنبت نظراتها الحائرة في عينيّ.. وأدركتُ حقًّا كم كانت جميلة ومتفتّحة!

ـ أنت ما الذي تريده بالضبط؟..

سألت بجِدّيّة هذه المرّة.

ـ أنا.. أريد أن أعمل بحثًا اجتماعيًّا.

ـ ماذا تقصد ببحث اجتماعيّ؟

سألت ثانية وهي تهزّ رأسها، فتراقصت أقراطها الطويلة.. وبعد أن شرحتُ لها فكرتي، تأكّدتْ من أنَّني لا أريد سوى المعلومات.

ـ لكنّ البنات هنا يشعرن بالخوف، وحذرات جدًّا.. جميعهنّ هاربات من أهاليهنّ..

ـ حتى أنت؟..

قالت وهي تطأطئ رأسها:

ـ نعم.. وهل أنا أحسن منهنّ؟

كانت لهجتها جنوبيّة مثل سحنتها السمراء.. ولأوَّل مرَّة، لمحت خيط حزن في عينيها الواسعتين.

ـ حسنًا.. لنبدأ بقِصَّتك أنت، ما رأيك؟

ـ أوف، يا أستاذ.. أمّ صبيح ستعتقد بأنَّنا عملنا شيئًا.. وستطالبك بالمال.

ـ ليس مهمًّا سأعطيها.. لا عليك.. افترضي أنّي سأنام معك ساعة من الزمن.. سأدفع ثمنها لأمّ صبيح مقابل أن تحكي لي قِصَّتك.

انتفضت الفتاة فجأة:

ـ أمّ صبيح؟.. وما شأنها؟.. لا. هي تأخذ فقط خمسة

وعشرين عن كلّ واحد يدخل لي.. لقد أخبرتك بذلك. وإذا رغبت أعطها خمسة وعشرين عندما تغادر..

ـ حسنًا.. ليس هناك مشكلة.

دفعت ذراعيها خلف ظهرها، فبرز صدرها الفتيّ مشرئبًّا.. ثم طوَّحَت برأسها إلى الخلف.

ـ ما الذي تريد أن أخبرك يا عيني.. أنت والله عجيب أمرك! أنا أعرف.. أنت تريد أن تعرف لِمَ أتيت أنا.. لهذا الطريق! أليس كذلك؟

ـ لا.. أنا أريد أن أعرف كلّ شيء عنك. لكنْ، لو أحببت أن تبدأي من هذه النقطة، فلا بأس..

ـ ليس هناك نقاط يا عيني.. كلّ ما في القِصَّة أنّ أبي نام معي عندما كنت في الرابعة عشرة..

ـ ماذا؟.. أبوك؟

صرخت مندهشًا.. نظرتْ الفتاة في عينيّ، وقالت كمن يتشفّى بي:

ـ نعم.. أبي.. غريبة ها؟!

عقدت الدهشة لساني.. لكنّ الفتاة تابعت من دون أن ترفع نظرها عنِّي:

ـ أتاني في الليل وأنا نائمة، ورفع ثوبي وأخذني.. كنت لا أعرف شيئًا.. وكان يشخر فوقي وأنا أرتجف مرعوبة.. وعندما انتهى منِّي انسلّ إلى سريره ونام بجانب أمِّي.

لم تبدُ ملامح خجل أو ألم ما على وجهها الأسمر ذي التقاطيع المتناسقة.. لكنَّ كلماتها بدت مثل سكاكين حقد تتلذَّذ بغرزها في مخيِّلتي، وهي تستعيد الأحداث الدامية تلك..

ـ وبعد؟.. ما الذي حصل بعد ذلك؟

ـ وما الذي تتوقَّع أن يحصل؟ صرت أنزف طول الليل.. وفي الصباح، رأت أمِّي آثار تلك الدماء على فراشي.. فغسلتني ووضعت لي خرقة معتقدة أنَّها الدورة الشهريّة. وبقيت طول اليوم أبكي من الألم، وأنا أشعر بنصل سكِّين كبيرة مغروز في لحمي.. وتكرَّر الأمر ثانية وثالثة.. حتى صار يأتيني كلّ ليلة تقريبًا. ولم يعد يقترب من أمِّي المسكينة التي كانت تنام مثل الميتة من تعب النهار.

انتزعت نفسي من الدهشة، وسألتها بفضول ولهفة:

ـ وكم استمرّ الحال على هذا المنوال؟

ـ أكثر من أربعة أشهر..

ـ وكيف انتهى؟

ـ حبلتُ منه وبدأت بطني بالتكوّر، ثم اكتشفت أمِّي الأمر، وأخذت تلطم خدودها وتعنِّفني، وما فتأت تسألني.. من فعل بكِ هذا؟ ولم أستطع مصارحتها بالأمر.

أمسكتُ يدها المعروقة، فتفاجأت واضطربت ملامحها.. نظرتْ إليّ وهي تبتسم ابتسامة مرّة.

ـ هل تُصدِّق؟.. صارت أمِّي تهدّدني به.. قالت إنَّه سيقتلني لو اكتشف الأمر.. فقلت لها أخبريه.. هذا أحسن حلّ. لكنَّها

اعتقدت أنَّني أتحدّاهم، وكانت مرعوبة وتبكي طول الوقت.. وأنا ألحّ عليها بأن تخبره.. فكَّرتُ بالانتحار، لكنَّني خفت من الموت. قلت أرمي نفسي في النهر وأخلص.. وقَضَيت ليالي طويلة، وأنا أتخيَّل الاختناق تحت الماء، ثم الفضيحة التي ستلحق بأهلي وأخوتي، فعدلت.. وأخيرًا استسلمت أمِّي للأمر وأخبرته.. قالت له، إن صعدت أو نزلت فهي ابنتنا. وعلينا مداراة الأمر قبل الفضيحة، وقبل أن يسمع أخوتها بالخبر..

ـ وماذا كان جوابه؟..

رفعت رأسها من دون أن تنظر إليّ هذه المرّة.. وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع. أمسكتُ بكفّيها الصغيرين ورَبَّتُّ على كتفها:

ـ حسنًا.. لا داع لمواصلة الحكاية إن كان الأمر يؤلمك.

نشجت بحرقة، وهَزَّت رأسها:

ـ لا، أبدًا.. أنا تعوَّدت على الأمر. وهذه الذكريات تعيش معي منذ سنوات.. أستعيدها كلّ ليلة عندما أضع رأسي على الوسادة. تصوَّر.. قال لها خذيها لبغداد واتركيها هناك، وعودي.. فأحضرتني أمِّي إلى بغداد، وذهبت بي إلى قريبة لها تسكن مدينة الشعب، وتركتني عندها، وعادت.. كانت المرأة طيّبة.. صارت تطعمني، وحاولت أن تعرف من هو الرجل الذي فعل بي ذلك! لكنَّني ادّعيت أنَّني كنت على علاقة بأحدهم، وغدر بي وهرب. كان رجلها يعمل في الجيش ويغيب عن البيت لأيّام.. فاتّفقت مع قابلة في المنطقة وأجهضوني.. كنت في

الشهر الرابع، وكانت العمليّة مؤلمة وخطرة، وأُصبت بنزف شديد، فنقلتني إلى المستشفى، وبقيت هناك ثلاثة أيّام.. قالت للأطبّاء إنّني سقطت من على الدرج، وأجهضت.. لكنَّهم طلبوا منها إحضار زوجي ليستلمني.. فغابت المرأة يومين.. وشعرت بالرعب، وفكّرت بالهرب من المستشفى. حكيت مع عاملة تنظيف بدت عليها علامات الطيبة لتساعدني في أمر الفرار.. لكنِّي فوجئت في اليوم التالي بحضور المرأة وزوجها إلى المستشفى، وادّعى الأخير بأنَّني زوجته الثانية وأخرجوني معهم.. فصرت أعمل عندهم مثل الخادمة مقابل المأوى والطعام فقط.. لكنّ الزوج صار يراودني من حين لآخر.. وذات يوم، خرجت المرأة إلى بيت أختها في مدينة الحرِّيَّة، وبقيت ثلاثة أيّام كاملة معه.. ولم تكن جراحي قد شفيت تمامًا، لكنّه لم يبال بالأمر وصار يأتيني أكثر من أربع مرّات في اليوم.. وعندما عادت زوجته أدركتُ أنَّها تعرف بالأمر، وتعمّدت الغياب عن المنزل.. استمرّ الحال على هذا المنوال ثلاثة أشهر.. كان الرجل طيّبًا معي وعطوفًا، واشترى لي بعض الملابس.. لكنّه كان شبقًا ويؤذيني في الليل.. حتى أُصيبت زوجته بالغيرة. وذات يوم، أعطتني مبلغًا من المال وطلبت منِّي مغادرة المنزل.. لم أكن أعرف إلى أين سأتّجه! لكنَّها أعطتني عنوان قريبة لها، قالت إنَّها تعمل موظّفة خدمة في إحدى الدوائر البلديّة.. خرجت من المنزل مع حقيبة صغيرة، وذهبت بسيّارة أجرة إلى دائرة البلديّة التي تعمل فيها قريبتها.. وهناك، سألت عنها. امرأة في الأربعين تُحضّر الشاي والقهوة للضيوف.. أجلستني قربها في المطبخ، وأحضرت

لي الطعام والشاي.. وعندما انتهى العمل اصطحبتني معها إلى منزلها في منطقة الفضل.. كانت تسكن مع ابنتيها المطلّقتين فقط. وسرعان ما اكتشفت أنَّهنّ يستقبلن الرجال في بعض الأحيان، ويسهرن معهم في المنزل ويتناولن الخمر ويرقصن في الليل.. وطلبت منِّي المرأة استقبال بعض الرجال، ففعلت على مضض! وكانوا ينقدونها المال لقاء ذلك، لكنَّها لم تعطني شيئًا.. وأخذت بناتها يذللني ويطلبن منِّي أن أخدمهنّ، وكنت أفعل مرغمة، لأنّني أخشى طردي من المنزل.. حتى بتّ لا أطيق عيشة الجحيم تلك، ولم يكن معي مال.. وذات يوم، أتاني رجل يعمل ميكانيكيًّا، فأعجبته وتعلّق بي.. وصار يأتي ثلاث مرّات في الأسبوع ليمارس الجنس معي فقط، ويدفع المال للمرأة.. فطلبت منه مساعدتي في تدبير مكان آخر لي غير هذا المنزل، وحكيت له قِصَّتي وأخبرته بأنّ المرأة لا تعطيني أيّ مال، وأنَّهم يضطهدوني ويعذِّبوني هنا.. فوعدني بأن يبحث لي عن مأوى غير هذا، ويساعدني في التخلُّص من تلك المرأة.. وذات ظهيرة، أتى فجأة، وطلب منِّي إحضار حقيبتي والصعود معه في السيّارة.. فتشاجرت معه المرأة، لكنَّه هدَّدها بالإخبار عنها، فخافت وطلبت منه المال لقاء اصطحابي، فرفض منحها أيّة أموال. وغادرنا.. وعندما سألتهُ في الطريق إلى أين سيأخذني، قال لي.. أنتِ في جميع الأحوال تعملين في الدعارة.. فاعملي لصالحك أنت على الأقلّ.. لعلّك تجمعين مبلغًا من المال وتهربين خارج البلاد.. قال إنَّه سيوصلني إلى نزل في منطقة الميدان تديره امرأة طيِّبة، كان قد اتّفق معها على استقبالي.. وهكذا وصلت إلى هذا

المنزل، كما ترى.. نظرت إليَّ بنظرة تقطر ألمًا، وقالت مبتسمة من بين دموعها:

ـ هل ارتحت الآن؟..

فاعتذرت عن الألم الذي سبّبته لها من دون قصد، وعرضت عليها مساعدتي.. لكنَّها ربَّتت على كتفي.. ثم نشجت ومسحت دموعها.

ـ يكفيني أنّك استمعت إليّ.. فأنا لم أروِ قِصَّتي لأحد سواك. صدّقني.. لا أدري!! شيء ما جذبني إليك وجعلني أثق بك.. لكنَّني أراك متألمًا الآن بسببي، وسأبدأ بلوم نفسي..

ـ لا، أبدًا.. أقصد نعم. متألِّم جدًّا للمصير الذي وصلت إليه، وأنتِ الشابَّة اليانعة.. ولو كان الأمر بيدي لأخرجتك من هذا السجن الذي أنتِ فيه!

مَدَّت يدها، وعدَّلت من وضع غرّتي بحنوٍّ..

ـ أعرف ذلك.. لكنّ صدّقني إذا تجاوزت عتبة هذا المنزل سيقتلوني.. تأكَّد من ذلك.. ثم إنّي تعوَّدت على العيش فيه، وهناك الكثيرات مثلي.. مصائرنا متشابهة.. وهنّ أكبر منِّي سنًّا ويعطفن عليَّ ويعاملنني مثل أختهنّ الصغرى.. كما أنَّ أمّ صبيح امرأة طيِّبة.. لا يغرّنّك طول لسانها وصَلَفها. فهي الأخرى قد عركتها الحياة وعصرتها بقوّة..

ثم نهضت وقبَّلتني:

ـ أنت أوَّل رجل يزورني، ولم يمارس الجنس معي.. فتعال أصحبك بجولة في المنزل قبل أن أتعلّق بك.. تكفيني المصائب

التي أواجهها يوميًّا حتى أتعلّق برجل مثلك!

وما إن خرجنا حتى خرجت إلينا أمّ صبيح من إحدى الغرف..

ـ بشّرني أستاذ.. بالله عليك كيف وجدتها؟ أليست حوريَّة؟..

لكنَّها سرعان ما شعرت بأنّ شيئًا ما قد حصل في الداخل، عندما رأتنا جافلين يسربلنا الحزن وآثار بكاء في عيني ضويَّة.. وهذا هو اسمها أخيرًا. صفنت أمّ صبيح قليلاً.. ثم تساءلت:

ـ خير؟ هل من خطب؟.. ما بالكما كما لو كنتما في عزاء؟

فتداركت الأمر، وأخبرتها أنّها بالفعل حوريَّة، وأنقذتها ورقة الخمسة وعشرين..

ـ لا.. عزيزي لا يصحّ! أنتَ أوَّل مرَّة تأتينا.. ماذا ستقول عنّا؟

لكنَّني دفعت بالورقة، وأغلقت كفّها الكبيرة عليها..

اتّجهت بي ضويَّة إلى غرفة في الطابق الثاني.. فنادت عليها أمّ صبيح:

ـ ويلك ضويَّة.. كلّ شي إلّا هذه المُعقّدة! أنظر إلى أين تريد اصطحاب الرجل..

* * *

لم تبالِ ضويَّة بنداء أمّ صبيح، وصعدت السلّم أمامي كالغزالة.

ـ هذه تنفعك بحقّ.. قِصَّتها قِصَّة.. وإن كانت متباهية ومتكبِّرة قليلاً، لكنَّها طيِّبة القلب ومنكسرة..

عندما أصبحنا في الطابق الثاني، وضعت ذراعها على الجدار قاطعة الطريق عليّ فجأة:

ـ صحيح، تذكّرت.. لم تخبرني ما اسمك؟..

ضحكت، وأنا أستمتع بغنجها الطفولي:

ـ آسف.. اسمي علي..

ـ الله.. أحلى اسم، وأحبّه جدًّا.. أخي الصغير كان اسمه عليًّا..

دلفت إلى الغرفة من دون أن تقرع الباب.. وغالبًا ما يفعلون

ذلك في هذا المنزل، على ما يبدو. فليس ثمَّة خصوصيّة هنا! بقيت واقفًا في الممرّ أتفحّص فضاء الباحة الواسعة.. سمعت ضويَّة تتحدّث إلى الفتاة الأخرى..

ـ انهضي، وعدّلي شعركِ.. لديّ ضيف أريد أن أعرِّفك إليه..

ـ وهل تُسمِّين هؤلاء ضيوفًا؟.. كلُّهم بهائم. صدِّقيني.. اتركيني أقرأ.

ـ لا.. هذا رجل مثقَّف، يريد فقط التعرُّف إلينا.. لا يريد ممارسة الجنس.

ثم نادت عليَّ بصوت عال:

ـ تفضَّل أستاذ، تفضَّل.. لِمَ تقف في الباب؟

تردَّدت قليلاً.. لكنَّ ضويَّة مَدَّت لي ذراعها وسحبتني إلى الداخل.. فوجئت بشكل الغرفة هذه المرَّة.. كانت مُرتّبة، وثمَّة طاولة صغيرة فوقها بعض الكتب والمجلّات، وقرب السرير لمحت جهاز تشغيل أقراص حديث.. ليس ثمَّة صور على الجدران.. فقط خارطة كبيرة للعالم تحتلّ الجدار المواجه للباب، خارطة دقيقة وملوَّنة تظهر فيها القارّات بألوان مختلفة.. وفي أقصى يمين الخارطة، ثُبِّت مسمار كبير عُلّقت عليه بعض الملابس الداخليّة.. عندما دخلت، كانت الفتاة الأخرى مستلقية على السرير تسند رأسها إلى كوعها.. لكنَّها ما إن رأتني حتى اعتدلت في جلستها. سلّمت عليها بخجل:

ـ مساء الخير..

ـ أهلاً، مساء النور..

وراحت تعدّل من وضع شعرها القصير المصبوغ بلون كستنائي جميل.. كانت امرأة في الثلاثين، ذات جذع متناسق وصغير نسبيًّا، تؤطّر وجهها الرشيق تسريحة قصيرة.. أبعدت المدفأة النفطيّة التي كانت قرب السرير لتفسح لي مجالاً للجلوس على المقعد الوحيد.. قالت بصوت ناعس، كما لو كانت قد صحت توًّا من النوم:

ـ آسفة.. لم أتوقع دخولكم عليَّ.. ضويَّة قصصها لا تنتهي!

ونظرت إلى ضويَّة، كما لو كانت تستفهم منها.. فبادرت ضويَّة:

ـ أستاذ علي رجل مثقَّف وراغب بالتعرُّف إلينا ويتبادل الحديث معنا.. ليست قضيّة جنس.. هو ليس من هذا النوع..

نظرت إليَّ المرأة مستطلعة:

ـ أهلاً وسهلاً.. وإن كانت هذه لا تحدث عندنا.. أقصد الرجال هنا ـ أنت تعرفهم.. لا يفكِّرون إلَّا بوسطهم..

ضحكتُ.. قالت ضويَّة:

ـ حسنًا.. سأترككم تتحدَّثون وحدَكم.. خذوا راحتكم..

ثم التفتت إليَّ:

ـ أستاذ علي! أنا موجودة تحت.. عندما تنتهي نادِ عليَّ..

وخرجت، بعد أن أشارت للمرأة بإشارة معناها أن كوني مؤدَّبة.. نادتها المرأة قبل أن تخرج:

ـ ويلك ضويَّة.. إلى أين ذاهبة؟ إبقي معنا.

ضحكت ضويَّة بغنج:

ـ لا، عيني، لا.. إبقي معه.. أنتما تناسبان بعضكما بعضًا.

وما إن أوصدت ضويَّة الباب حتى وجدت نفسي وجهًا لوجه مع امرأة مختلفة كلِّيًّا، ذات شخصيّة قويّة وكيان.. لكنَّها حزينة ويائسة.. أشعلت سيكارة وسحبت نَفَسًا عميقًا، ثم وضعت رجلاً على رجل، ونفثت الدخان أمامي.. ومن دون أن تنظر إليَّ، قالت:

ـ شكلك مختلف حقًّا.. ما الذي رماك علينا يا ترى؟

ـ كنت مارًّا من هنا صدفة، فاقترح صديق لي الدخول إلى البيت والاطِّلاع على عالمكم..

ضحكت ضحكة خافتة، وقالت معلِّقة:

ـ عالم الفضيلة تقصد؟

ـ لا.. عالم القصص الحزينة والأحلام المحبطة والأمنيات الذابلة..

التفتت نحوي بفضول كمن تكتشفني لأوَّل مرَّة:

ـ أنت ماذا تشتغل؟

ـ صحفيّ..

نفضت رماد السيكارة في المنفضة بطريقة أنيقة، ثم وضعت كوعها الذي يسند حنكها على ركبتها، وصارت تحرّك ساقها

السائبة حركة تنمّ عن لامبالاة ودلال وإغراء.. قالت:

ـ هل حقًّا لا تريد ممارسة الجنس؟

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ لأنّني أحببت فقط التعرُّف إليكنّ وسماع أخباركنّ..

ـ أخشى أن يكون المكان لم يعجبك.. أنتم المثقَّفين تريدون رومانسيّة وشموعًا وموسيقى هادئة..

ـ أبدًا.. بالنسبة لي، المكان بإناسه، وأنتم حلوين ونظيفين وتسحرون أيّ رجل..

قَرَّبت جذعها منِّي، ونظرت إليَّ بإمعان.. قالت هامسة بطريقة مثيرة:

ـ أنت متأكّد بأنَّك لا تشتهيني الآن؟

شممت عطرها الهادئ مخلوطًا برائحة السكائر.. كانت عيناها صغيرتين برموش طويلة، ولم تكن تضع أيّة مساحيق تجميل سوى بعض أحمر الشفاه الخفيف فوق شفتيها الممتلئتين.. قلت مداريًا حرجي:

ـ أنت مثيرة جدًّا في الواقع..

نفثت دخان سيكارتها بوجهي، وقالت:

ـ أجب على قدر السؤال.. هل أنت مشتهيني؟

ـ نعم مشتهيك.. هل ارتحتِ؟ هل نستطيع أن نتحدّث الآن؟

ـ لا.. لن أتحدَّث بأيّة كلمة ما لم تنم معي.. لا أريد أن أكتم حاجة بنفسك..

وأطلقت ضحكة غريبة!

قلت:

ـ أنا جادّ..

ـ وأنا أيضًا جادّة.. لِمَ تريد أن تشعرني بالإذلال؟

ـ أيّ إذلال هذا..

ـ أن تعافني نفسك.. أليس إذلالاً؟

ـ لم تعافكِ نفسي على الإطلاق.. كلّ ما هناك أنَّني عندما دخلت لم أكن أنوي المتعة بقدر ما هي حاجة إنسانيّة في نفسي أن أتعرّف إلى عالمكنّ وأتحدّث معكنّ.. أمّا إذا تعدِّين الأمر إذلالاً، فأنا أعتذر.. ونهضتُ عازمًا المغادرة.. فنهضت فجأة، وأمسكت بيدي:

ـ اجلس يا عيني.. أنا أمزح معك.. ألم تقل إنَّك تريد أن تتناقش؟.. ما الذي دهاك؟

نظرتُ في عينيها لبرهة.. فغمزتني وقالت آمرة:

ـ اجلس.. اسمع الكلام.

فسمعت الكلام، وجلست.. أطفأت سيكارتها بطريقتها الأنيقة، واقتربت منِّي..

ـ أنت، من أيّ عالم أتيت؟

ـ من الخارج..

ـ آها.. أنت تعيش في الخارج إذًا؟

ـ لا.. أقصد عالمًا ما خارج منزلكم.

ـ العالم خارج منزلنا هو هو.. لم يتغيَّر.. يوميًّا يرمي لنا بأزباله وقاذوراته.. أنت لست من عالم ما خارج المنزل.

كنت منذهلاً لثقافتها وقوَّة إدراكها بالنسبة لامرأة في مثل وضعها.. تفحصّت مُكوِّنات الغرفة من جديد مداريًا موجة الحرج:

ـ ما قِصَّة هذه الخريطة؟..

ـ ما بها؟.. مجرَّد خريطة للعالم.. ثم التفتت نحوي بشكل مباغت، وقالت:

ـ أخشى أن تكون ضويَّة قد حكت لك شيئًا عنِّي؟

ـ لا.. أبدًا.. هي تحبّك وتحترم خصوصيّتك.. قالت لي اسمع منها فقط. هذا لو رغبت بالحديث إليك.. نهضتْ وخَطَت باتّجاه الخريطة، فلاح لي قوامها المتناسق.. ثم رفعت قطعة الملابس الداخليّة عن المسمار..

ـ هل انتبهت إلى هذا المسمار؟

اقتربتُ من الخارطة قليلاً.

ـ إنَّه مُثَبَّت على نيوزيلاندا.

ربَّتت على كتفي، وقالت:

ـ شاطر..

عدنا لجلستنا.. وبدت كمن نكأ جرحًا عميقًا بداخلها..

وأخرجت سيكارة جديدة.

ـ ما قِصَّة نيوزيلاندا إذًا؟

تساءلتُ بإلحاح.. أجابت، وهي تشعل السيكارة:

ـ هي الحلم الذي ضاع منِّي وسط هذه الخرائب!

قالت ذلك بألم وحسرة، وهي تفرك أرنبة أنفها بظاهر كفّها ذي السيكارة.

ـ أنتِ لست امرأة عاديّة.. أقصد أنت متعلِّمة على ما يبدو.

ـ أنا مُدَرِّسة جغرافيا.. أقصد كنت مُدَرِّسة جغرافيا.

وسكتت.. ثم عادت لتسند حنكها إلى راحة يدها المسنودة بدورها إلى ركبتها، وأخذت تحرّك قدمها السائبة حركة عصبيّة بعض الشيء.

ـ إحكي لي.. فضفضي.. لِمَ أنت مُتردّدة؟

نظرت إلى سقف الغرفة، وقالت:

ـ لم أعتد أن أكون ضعيفة أمام الآخرين.

ـ ولِمَ تعتقدين بأنَّه ضعف؟ نحن بشر وعرضة لمختلف الظروف..

نظرت إليّ بتوجُّس، ثم قالت همسًا بطريقتها الفَذّة:

ـ ما سأرويه ضعفًا وهزيمة وغباءً.. أعلم ذلك جيِّدًا. لكنَّك لن تسخر منِّي.. فأنت تبدو عليك الطيبة، وشكلك يوحي بالثقة..

قُرع الباب فجأة، فنهضت وفتحته.. أطلَّ صاحبي ورائحة

البيرة تفوح منه.. سألها:

ـ هل أستاذ علي ما زال هنا؟

فالتفتت المرأة نحوي مستفهمة.. كنت قد نسيته تمامًا في الواقع.

ـ آسف يا صديقي! انشغلنا بالحديث..

ـ لا، أبدًا.. أنا جالس تحتْ مع أمّ صبيح.. عندما تنتهي نادِ عليّ، لكن لا تتأخّر.. فالمنطقة هنا خطرة في الليل.. إلَّا إذا كنت تنوي المبيت!

وغادر ضاحكًا.. عادت المرأة إلى جلستها، بعد أن أغلقت الباب:

ـ يا عيني.. ومعك بودي غارد أيضًا؟ قالت متهكّمة.

ـ لا، أبدًا.. ليس بودي غارد.. هو صديق دلَّني على المنزل، فأنا لا أعرف المنطقة جيِّدًا.

ـ صحيح.. لِمَ لا تبيت عندنا الليلة؟ وسنحكي حتى الصباح إذا رغبت.

ـ لا، شكرًا.. لم أكن أنوي الدخول أصلاً، وكنت مغادرًا إلى الكرّادة لولا أنّ صديقي اقترح المرور عليكم.. ثم لديّ شغل مهمّ غدًا، وعليّ النهوض باكرًا..

ـ حسنًا.. لا أريد أن أضغط عليك أكثر.. لكن، عدني بأنَّك ستأتي في يوم آخر.

ـ أعدكِ بذلك..

دَنَت منِّي، وقالت همسًا كعادتها:

ـ ولتكن نِيَّتك مُبيَّتة في المرَّة المقبلة. أقصد لا تقل لي إنَّك جئت تنوي الحديث فقط.

ضحكتُ.. فبرقت عيناها، وقالت:

ـ أرأيت؟.. أنت لا تقولها. أعرفك.. عمومًا، أنا فرحة الآن.. أشعر بأنِّي تعرّفت إلى صديق أثق به.. مهما كانت نواياك، لا تكذب عليَّ.. إذا كنت لا ترغب بالمجيء، فلا تعدني كذبًا وتحطّم صورتك داخلي... أرجوك.

ـ أعدك صدقًا أنَّني سأعود. أمّا نواياي، فلنترك الحديث عنها الآن.

ـ لا يهمّ.. المهمّ أشعرني بالاحترام ليس إلّا.. فأنا بحاجة ماسّة لصديق يحترمني.

نظرتُ إليها، وهي تداري البريق الذي في عينيها الصغيرتين، وهالني انقلابها المفاجئ.. كأنَّها لم تكن تلك اللبوة التي استقبلتني قبل قليل من دون مبالاة وتجاهل.. لكنَّني في المقابل أدركت حجم الإنسانة الكبيرة والمحطَّمة داخلها..

ـ هل تحبّ سماع الموسيقى؟

ـ ماذا لديك؟

ـ ليس الكثير.. لنرَ..

وراحت تُقلّب مجموعة من الأقراص.

ـ كاظم الساهر حفلة قرطاج.. جورج وسوف سلطنة..

محمّد عبده الأماكن.. نجاة الصغيرة أيظنّ.. أنغام حفلة الموسيقى العربيّة.. أله.. أله.. أنغام بهذه الأغنية تأخذ العقل.. أعتقد أنَّك لم تسمعها من قبل.. تشبه الموشَّحات!

وضعت القرص في جهاز التشغيل، فانساب صوت أنغام الرخيم شجيًّا وعذبًا يسلب الروح بحقّ.. جَحدَت عيناك زكي دمي، أكذلك خدّك يجحده؟.. كانت تُردّد مع أنغام كلمات الأغنية بصوت عذب أيضًا، وبدت كمن يحفظ الكلمات عن ظهر قلب!

ـ أتعرفين مَنْ كتب هذه الأغنية؟

ـ يقولون إنَّه أحمد شوقي.

ـ لا.. هذا ما أُشيع.. في الواقع، كاتبها شاعرٌ أعمى يُدعى الحصريّ القيروانيّ، كان يتردَّد على بلاط المُعتمَد بن عبَّاد في الأندلس وينشد الشعر، فأحبّ جارية مليحة.. ومن حفيف أثوابها ورنين أساورها وعطرها، افتتن بها وكتب عشرات القصائد في جحودها، لأنَّها أنكرت عليه كبر سنِّه وعماه.. على الرّغم من أنّ المُعتمَد نفسه توسّط له عندها.. قال لها المُعتمَد: فلتكن في قلبكِ رحمة، ولتطفئي نار شوقه.

أعجبتها قِصَّة الحصريّ كثيرًا، لدرجة أنَّها أطفأت مُشغّل الأقراص، وسألت بلهفة:

ـ وماذا كان جوابها؟

ـ رفضت..

ـ لا، لا.. أقصد نصًّا ماذا قالت للمُعتمَد.. يبدو أنَّك تحفظ الحوار أيضًا.

ـ نعم.. قالت بالنصّ.. أهو أمر أم رجاء يا مولاي؟ فأجابها المُعتمَد: بل هو رجاء. قالت: فليغفر لي الله يا مولاي، لأنّي قد خَيَّبَت رجاءك.

نهضت فرحة مثل طفلة، ودارت وسط الغرفة بحركة راقصة، وهي تهتف:

ـ يا عيني عليك.. يا عيني عليك!

ثم انحنت عليّ، وسألتني.. ماذا كان اسمها تلك الجارية؟

ـ صُبح..

فهتفتْ:

ـ يا عيني عليك يا صُبح.. لقد جبرتِ خاطري.

ضحكتُ من ردّة فعلها، وأنا أكتشف حجم الطفلة التي في داخلها.. فأمسكت برقبتي كمن يريد خنقي.

ـ على مَن تضحك؟. ها؟.. على مَن؟.. أنتم يلزمكم هكذا واحدة.

ـ كم أنتِ حاقدة على الرجال!!

جلستْ بجانبي من جديد، وانكسر بريق الفرح في عينيها.. وتراجعت الطفلة إلى أعماقها السحيقة فجأة.. وعبثًا حاولت مداراة دموعها التي انبجست.. فرميت ذراعي فوق كتفها محاولاً مواساتها.

ـ ماذا هناك؟.. لِمَ تبكين؟

ظَلّت مطرقة ولا تجيب.. ثم بعد برهة، قالت وهي تنشج:

ـ لا أكره الرجال.. أنا لست مُعقَّدة. صدّقني.. أنا فقط

أنتقم من جسدي بالنوم مع هؤلاء الحثالات، لأنَّه سَبَّبَ ليّ جميع تلك المآسي، وأوصلني إلى هذه الحال..

ـ حسنًا.. لنناقشها واحدة واحدة.. أنتِ لا تكرهين الرجال، وأنا أعرف ذلك.. كما إنَّك لست امرأة مُعقَّدة، بدليل أنَّك تحبِّين الحياة والفرح حتى وأنت في أوْجِ حزنك وانكسارك.. أمّا أن تنتقمي من جسدك بهذه الطريقة، فهذا ليس حلًّا على الإطلاق.. أنتِ قلتِ لي قبل قليل إنَّك تشعرين بالإهانة في حال عدم رغبتي بك.. فأيّ تناقض هذا؟

نشجت بحرقة.. وقالت:

ـ قصدتك أنت.. اعتقدتك ستعمل عليّ مثقّفًا وتستصغرني.. كان ذلك قبل أن أعرفك جيِّدًا.

ثم رفعت رأسها نحوي، وهي تبتسم من وسط دموعها:

ـ أمّا الآن، فذلّني يا عيني.. ذلّني.. فما الذي أبقيته بعد؟ لقد اطّلعت على ضعفي وفرحي وجنوني.. وكلّ ذلك في ساعة واحدة.. الله يلعنك ضويَّة.. من أين أتيت بهذه البلوى اليوم!! لنعد إلى الأخضر القيرواني.. أو.. ما اسمه ثانية، قلت؟

ـ الحصريّ القيروانيّ يا عزيزتي..

ـ نعم: الحصريّ.. تعرف؟.. أنا أحبّ قصص التراث وحكايات العشق والغرام.. أين قرأت حكاية القيروانيّ هذه مع الجارية صبح؟ هل تتذكّر؟

ـ نعم، قرأتها في كتاب «طوق الحمامة في الإلفة والإيلاف»..

ـ الله.. هذا من اسمه يأخذ العقل.. أكيد ممتع.. أتدري؟ أتمنى الحصول على مثل هذه الكتب.. كنت قارئة جيِّدة في شبابي.. لكن للأسف، نحن لا نستطيع حتى تجاوز عتبة هذا المنزل.. الوضع خطر جدًّا هنا، كما تعرف.. من هو مؤلِّف طوق الحمامة؟

ـ اسمه ابن حزم الأندلسي..

ـ أليس الأصفهانيّ؟

ـ لا.. الأصفهانيّ عنده كتاب الأغاني.. أيضًا كتاب رائع!

اندهشت.. فآخر ما كنت أتوقَّعه أن أجد امرأة بائعة هوى تسكن في منزل كهذا تعرف أبا فرج الأصفهانيّ.. عادت تدندن مع الأغنية الساحرة. وكلَّما انتهى مقطع من المقاطع تطلق آهات الإعجاب بنشوة.. بيني في الحبّ وبينك ما لا يقدر واش يفسده.. ما بال العاذل يفتح لي باب السلوان وأوصده.. ويقول تكاد تجنّ به.. فأقول وأوشك أعبده..

ـ الله الله الله.. يا ألله.. هل هناك أعذب من هذا الكلام؟

ـ من يخطر بذهنكِ وأنت تسمعين مثل هذا الكلام؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد: نحن، عندما نسمع كلامًا رقيقًا وعذبًا مثل هذا، نتخيَّل صورة ما لمحبوب، ونسقط الكلام عليه.. أنتِ على من تسقطين هذا الكلام؟

نظرت إليّ حائرة.. وبعد تردّد، قالت:

ـ عليك..

فضحكتُ ضحكة مجلجلة.. لكنّها لم ترفع نظرها عنّي. وتساءلت:

ـ ما بك؟.. بالله عليك.. ألا تصدّق؟

قطع صوت أمّ صبيح علينا ميتافيزيقيا المشاعر تلك:

ـ ماما هنّوده.. يا هنّودة..

مشت نحو الباب، وهي تهمس: اللعنة!! ثم أخرجت رأسها من الباب، وهتفت:

ـ نعم، عمّتي!!

صاحت أمّ صبيح من الطابق السفلي:

ـ بُنيّتي.. حليم جاء لأجلكِ. يقول هل لديها مجال اليوم؟

خرجت من الغرفة تداري حرجها، وسمعتها تهمس عبر الباحة لأمّ صبيح:

ـ هل هذا وقته يا عمّتي؟.. ماذا أصابك؟.. لديّ ضيف.. ألا تعرفون ماذا يعني ضيف؟

أجابتها أمّ صبيح بصوت خفيض أيضًا:

ـ والله! قلت له يا بُنيّتي.. لكنَّه أراد أن يسمعها منك.

قالت المرأة محتدّة:

ـ نعم.. قولي له ليس لديها وقت، واطرديه.. ولا يأتي ثانية! لا أريد أن أرى وجهه.

عادت إلى الغرفة، وقد تغيّرت ملامح وجهها.. ثم أطفأت جهاز التشغيل بعصبيّة، وأخرجت سيكارة جديدة. كانت تتجنَّب

النظر إليّ.. فأدرت وجهها ناحيتي بصعوبة.. لكنّها تمنّعت:

ـ ما بكِ؟.. لِمَ هذا الانزعاج؟.. أرجوكِ.. لا تكوني حسَّاسة أكثر من اللازم. فأنا أقدّر الظرف الذي أنت فيه حاليًّا..

لطمتْ جبينها بحركة خفيفة.

ـ ألم أقل لك؟.. هذا الإذلال الذي قصدته.. حتى تصدّقني عندما أقول لك إذلال!

ـ اسمعي.. وجودك هنا في المنزل يُحتّم عليك بعض التضحيات التي تعرفينها.. أنتِ لست جديدة هنا.. لكنْ، دعينا نأمل بأن يكون وجودك موقّتًا.. أمّا أنا، فصدّقيني الذي يعنيني هو الإنسانة التي في داخلك، وليس هند التي في جسدك.. أقصد هند التي كانت تطرب وترقص قبل قليل على أنغام الأغنية الشجيّة، وليس هند التي تُجبَر على تلبية نداءات أمّ صبيح.. يجب أن تفهمي هذا جيِّدًا!

استدارت نحوي ومسحت دموعها:

ـ لِمَ تفعل بي كلّ هذا؟

صدمني سؤالها المباغت أوّل الأمر.. لكنّني أدركت ما ترمي إليه.. قلت:

ـ أنا آسف جدًّا.. صدّقيني.. يبدو أنّني ارتكبت خطأ كبيرًا عند دخولي المنزل.. لم يكن هذا مقصدي في البداية. لم أقدّر العواقب جيِّدًا في الحقيقة.

ـ تعرف؟.. لم أصادف رجلاً يحترمني منذ سنوات طويلة.. الجميع يعاملني كحيوانة يفرغون فيها سمومهم ويمضون.. أنت

أيقظت فيَّ كرامتي الدفينة التي اعتقدتها ماتت مع تحطُّم أحلامي..

ـ أعرف فداحة ما اقترفته، وأعتذر بشدّة.. طبعًا أنتِ تعرفين بأنّي لا أنوي التسبُّب لكِ بأيّ ألم.

نفثت دخان سيكارتها بوجهي من جديد.. قالت:

ـ أتسمح لي بأن أسبّك؟

ـ خذي راحتك..

ـ ابن القحبة.. ما الذي أتى بك إليَّ؟

ـ شكرًا.. هل تشعرين بتحسُّن الآن؟

أدنت فمها من أذني، وهمست بعبارة نابية أخرى.. قلت:

ـ لقد خدعتني.. مرّ الوقت ولم تحكي لي قِصَّتك، وصار لزامًا عليّ الذهاب الآن، فالليل قد أوشك، وأخشى أن يتركني صاحبي ويمضي، فأتيه في الأزقَّة وتتناهب جسدي الكلاب..

انتبهت فجأة للواقع الفادح، وشعرتُ بعلامات القلق في عينيها وارتبكتْ.. أمسكت بيدي وقالت:

ـ وأنا؟.. ماذا سأفعل حين تمضي؟.. سيأكلني الخوف وتطبق عليّ الوحدة هذه الليلة!

ـ اسمعي.. نادي ضويَّة بعد قليل لتؤنسك وتبقى معك.. هي فتاة طيِّبة وتحبّك كثيرًا.. احكي لها عن أحلامك ونيوزيلاندا والحصريّ.. أمّا أنا، فأعدكِ بأن أجلب لك «طوق الحمامة» وكتبًا أخرى حال ما أتمكّن من ذلك. فقد وعدتك ولن أخلف وعدي.. صَدّقيني..

كانت تمسك يدي بقوّة، وتنظر بوجهي نظرة غائمة.. وعند الباب، سألتني قائلة:

ـ أنت لم تأتِ لممارسة الجنس.. لكن هل تسمح لي بتقبيلك؟

فمسحتُ على رأسها، وأبعدت خصلة شعرها عن عينيها وقبّلتها.

خرجتُ من الغرفة، وما زالت ممسكة بيدي حتى بلغ ذراعها أقصاه، ثم أفلتتني.. وبقيت تراقبني من باب غرفتها حتى اختفيت في دهليز السلّم.

في الحوش، لاقتني أمّ صبيح.. فأعطيتها مائة ألف، وطلبت منها أن تشتري فاكهة للفتيات.. شكرتني، ونادت على صاحبي الذي خرج راكضًا وقد تعتعه السكر.. وأنا خارج، صوَّبت نظري إلى الأعلى، فشاهدت هند تمسك بالحاجز الخشبيّ، وتبتسم بمرارة وحزن.. كان نور المساء الساقط من خلفها يشعل الضوء الخافت في شعرها ويسربل كتفيها.. فبدت في لحظة خاطفة مثل ملاك محبط. صورتها تلك لن تغيب عن بالي ما حييت.. وما إن استدرت حتى اصطدمت بضويَّة التي كانت تقف خلفي، وتنظر هي الأخرى إلى هند المضاءة في سماء الحوش.. صافحتني بحرارة وحزن.. قالت بصوت خافت:

ـ لا تنسني..

قرب الباب الخارجي، قالت أمّ صبيح:

ـ لا تجعلها آخر مرّة يا أستاذ.. من الضروري أن تزورنا

ثانية. البنات تعوَّدن عليك، ونحن أحببناك.. والله!

دلفنا الزقاق المُظلم، وما زال صوت أمّ صبيح يتردَّد خلفنا:

ـ رافقتكم السلامة.. محروسين.. انتبهوا لحالكم.

كان الظلام قد أطبق أو كاد.. وصار المشي في الأزقَّة الضيِّقة والمتداخلة مخاطرة كبيرة.. وممّا زاد من قلقي إيغال صاحبي في الشرب، لكنَّه بدا كمن يعرف طريقه. مررنا بعدد من الخرائب الموحشة، وتناهت إلى سمعنا أصوات نباح كلاب وأنين.. كان الوضع مفزعًا بحقّ.. لكنَّني كنت فرحًا بالحصيلة التي خرجت بها من تلك المغامرة العجيبة، وإن خالطها اضطراب موجع في مشاعري.. وفي زاوية مظلمة، طالعنا رجل رَثَّ يأكل من صحن متّسخ.. ما إن لَمَحنا حتى ترك الصحن على الأرض وقطع الطريق علينا. حاول صاحبي دفعه عن الطريق، لكنَّني طلبت منه أن يتركه.. سألته:

ـ ماذا تريد؟

ـ جوعان..

فأخرجت له ألفي دينار وأعطيتها له. رفعها إلى الأعلى ليراها جيِّدًا في ضوء المساء الكابي.. قال:

ـ هذه لا تكفي.. أعطني المزيد.

لم يكن الرجل عنيفًا أو عدوانيًّا، بل بدا كمن يطلب من صديق يعرفه.. أخرجت له ألفين أخرى وأعطيتها له. وضعها في جيبه وأفسح لنا الطريق.. وعندما ابتعدنا عنه، نادى صاحبي:

ـ أنت يا ولد أبو القُبّعة!

فاستدار صاحبي ناحيته..

ـ انتبه إلى الأخ.. يبدو طيِّبًا وليس مثلك بومة..

مضينا في طريقنا بصعوبة بالغة حتى وصلنا ساحة الميدان المُضاءة، فتنفّست الصعداء.

ودَّعني صاحبي، ومضى مشيًا باتّجاه الباب المعظم حيث يسكن. كان الوقت متأخِّرًا للحصول على سيّارة أجرة تقلّني إلى الكرّادة، والليل في بغداد مخيف في مثل هذه الساعة. مشيت لبرهة، علَّني أجد وسيلة نقل ما.. لكنّ الشوارع خالية من المارّة وليس ثمَّة حركة.. فقط في الزوايا المعتمة، ألمح بين الحين والآخر ثمَّة أشخاصًا غامضين، هيئاتهم تشبه هيئات المُشرَّدين.. يخطفون فجأة في الظلمة ويختفون في العطفات المتداخلة. مررت على نقطة تفتيش.. كان جنودها يشعلون نارًا في برميل صغير ويتدفّأون. صاح بي أحدهم:

ـ إلى أين؟

كانت لهجته غير ودّيّة.. وعندما اقتربت منه، هتف متحفِّزًا:

ـ قف.. لا تقترب.. ماذا تريد؟

وصوَّب بندقيَّته ناحيتي.. كانت العتمة تحول دون التعرُّف على ملامحه، كما إنَّه كان ملثَّمًا ومستفزًّا:

ـ أبحث عن سيّارة أجرة تنقلني إلى الكرّادة.

ـ سيّارة أجرة؟.. بمثل هذه الساعة المتأخِّرة؟ أين كنت حتى هذا الوقت؟.. ألا تعرف أنّ الوضع خطير؟

ـ أعرف.. كنت عند صديق وتأخّرت قليلاً.

ـ عد وبت ليلتك عنده.. ليس ثمَّة سيّارات في مثل هذا الوقت. وإذا رأيتك مرّة أخرى، سألقي القبض عليك..

عدت أدراجي إلى ساحة الميدان والحيرة تتلبّسني.. وفجأة لمحت رجلاً يمشي خلفي. بدا كمن يتبعني.. فاشتعل الخوف في رأسي، وأبطأت خطواتي حتى يتجاوزني وأطمئنّ.. لكنّه أبطأ خطواته أيضًا. فشككت في الأمر. وفي المنعطف تحت ضوء كابي، لمحت ملامحه الغريبة.. خُيّل إليّ أنّني أعرفه. لا أدري أين رأيته! يشبه صَديقًا قديمًا قُتل في الحرب.. لكنَّه شاخ كثيرًا، وأطلق لحيته وشاربيه.. اقترب منّي ببطء:

ـ أستاذ علي كيفك؟.. ألست علي موحان؟

يا إلٰهي.. أعرف هذا الرجل معرفة جيِّدة بالتأكيد.. ملامحه ليست غريبة عليَّ.. لكن من يكون يا ترى؟.. ما اسمه؟.. وحاولت أن أعتصر ذاكرتي المتعبة. في الواقع، غالبًا ما ألتقي أناسًا يعرفونني ويسلِّمون عليّ بحرارة وحبّ.. لكنَّ ذاكرتي لا تسعفني بتذكُّرهم بعد هذه السنين الطويلة، وما مَرَّ عليَّ في المنافي وفترات التشرُّد.. الأمر الذي يوقعني بحرج كبير!

ـ ويلك.. صديقي الحبيب ألم تعرفني؟.. أنا صديقك سالم.

ـ سالم؟.. مَنْ سالم؟.. أعذرني، فذاكرتي متعبة في الواقع.

ـ ويلك.. أنا سالم.. سالم محمّد حسين.. ماذا دهاك؟

نعم.. تذكَّرت.. كان لي صديق حميم اسمه سالم محمَّد

حسين، لكنَّه أُعدم قبل أكثر من خمس وعشرين سنة.. تمرّد على الخدمة العسكريّة وظَلَّ هاربًا ومتخفّيًا سنوات طويلة، حتى أُلقي القبض عليه ذات ليلة، وسيق إلى سجن أبي غريب.. وهناك أعدموه رميًا بالرصاص.. لكن كيف يكون هذا؟ أقصد أن يكون حيًّا حتى اللحظة، ويَمُرّ عليه الزمن ويشيخ كما نشيخ نحن.. أمر مُحيِّر!! تطلَّعت إلى وجهه الهرم. سُمرته ما تزال هي هي، لكنّ الشيب غزا شعره، وغارت عيناه في محجريهما وملأت التجاعيد وجهه.. بينما بقيت ابتسامته على حالها، وما زال يتطلَّع بوجهي ويبتسم بمحبّة ووداعة.. كعادته.. عانقته بحرارة وقبَّلته، وكان يضحك من رَدّة فعلي.

ـ سالم.. يا صديقي الحبيب.. ألم تمت؟ سمعت أنَّهم أطلقوا عليك الرصاص.

ـ أيّ رصاص هذا؟.. ها أنا أمامك كما ترى. دعك من هذا الحديث وأخبرني.. كيف أحوالك.. ومتى عدت للعراق؟ وما الذي تفعله هنا في مثل هذه الساعة المتأخِّرة؟

حكيت له ما جرى لي، وسردت له أحداث اليوم الغريبة.. وكان يصغي بهدوء، وثمَّة ابتسامة على محيّاه لم تفارقه منذ التقينا. كنت أحكي له بارتياح، ويقودني في الأَزقَّة المظلمة التي خبرها جيِّدًا.. أذكر أنَّه كان يسكن في غرفة هنا قبل ثلاثين سنة مضت. يعرف المنطقة جيِّدًا، وتدرَّبَ على التخفِّي فيها والإفلات من رجال الأمن أيّام الهروب الكبير.. وقف فجأة أمام باب خشبيّ قديم. أخرج سيكارة وأشعلها، ثم التفت نحوي:

ـ إسمع.. الوضع خطير جدًّا، ويجب أن تبيت هنا الليلة.

ـ أين أبيت؟

ـ في غرفتي فوق السطح.. المكان آمن، ولا أحد يزعجك هنا.

ـ غرفتك نفسها التي كنت تسكن فيها من قبل؟

ـ نعم.. لقد ارتبطت بها ولا أستطيع تركها.. أين سأسكن برأيك؟

كان يتحدَّث عن الإلفة التي يشعر بها في تلك الغرفة القديمة، والكتب التي جمعها والأصدقاء المشتركين الذين زاروه فيها.. في الواقع، طالما سمعت عن غرفته تلك من أصدقاء عديدين، والمتاهة التي تحيط بها، والمخارج العديدة التي تفضي إليها تحسُّبًا للمداهمات.. لكنَّني لم أزرها من قبل. أخرج مفتاحًا حديديًّا صدئًا، وفتح الباب بهدوء حذر.. فكشف عن دهليز مظلم طويل. تَقدَّمني وهو يشعل قدّاحته، حتى وصلنا باب السلّم وصرنا نصعد الدرجات المُثَلَّمة بصعوبة. في الطابق الأوَّل، صادفنا رجل يحمل إبريقًا.. تَطلَّع إليَّ باستغراب. ألقيت عليه التحيّة، لكنَّه لَم يَردّ وظَلَّ متطلِّعًا باندهاش.. بدا كما لو أنَّه لَم يَلمَح صديقي حاكم الذي تجاهله هو الآخر، ومضى صاعدًا درجات السلّم باتّجاه الطابق الثاني.. كنت أشمّ عطرًا غريبًا.. أو رائحة تشبه رائحة السدر المفروك المخلوط برائحة السكاير طول الوقت. وما إن دخلنا باحة الطابق الثاني حتى حَلَّقت طيور ما في سماء الحوش.. طيور كبيرة جدًّا. عرفت ذلك من خفق أجنحتها القويّة

في الظلْمَة.. ولم يبال سالم، وواصل طريقه نحو الغرفة بهدوء. بينما صرت أتطلّع بدهشة يخالطها الخوف في سماء الحوش المفتوح، فتح باب الغرفة المقفلة بالمفتاح نفسه وولج قَبلي.. فداهمتني رائحة كتب وجرائد عتيقة وغبار. لكنّ الغرفة كانت مُرتّبة، وثمَّة مصباح صغير مُعلَّق في السقف لا يكاد يُضيء.. وسرير واحد تقابله طاولة كتابة وكرسيّ خشبيّ.. جلست على طرف السرير، بينما اتّجه سالم نحو رفوف الكتب القديمة واستَلّ واحدًا. كانت رواية «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك بطبعة مصريّة قديمة.. تصفَّحَت الكتاب بدهشة.

ـ هل تذكر قِصَّة هذا الكتاب؟

ـ نعم.. أذكر ذلك. أليست هذه هَديّة حبيبتك غَدير؟

تطلَّع إليَّ حاكم بحزن هذه المرَّة، قبل أن يسألني بصوت خفيض:

ـ أين غَدير الآن؟.. هل سمعت عنها شيئًا؟

كانت غَدير فتاة جامعيّة تدرس الأدب الإنجليزي، تعرَّفنا عليها ذات ندوة أدبيّة نظّمتها الجامعة لنا، ونشأت علاقة عاصفة بينها وبين سالم.. لكنَّني لم أسمع بها بعد ذلك. نظرت إلى سالم الذي ارتسمت على محيّاه علامات الحزن، وقلت:

ـ لم أسمع بها منذ ذلك الحين.

ـ لكن أين تكون برأيك؟

ـ لا أدري.. ربّما تزوّجت الآن، ولفَّت فوطة كبيرة حول رأسها!

ـ لِمَ تعتقد ذلك؟

ـ لا أدري.. أغلب النساء من جيلنا يبدين كذلك الآن.. حزينات بوجوه شاحبة، ويلففن الفوط السود حول رؤوسهنّ بعد أن نسين شبابهنّ وأيّام الجامعة الملتهبة بالأحلام.. إنَّهنّ الآن أمّهات يندبن أبناءهنّ الذين يموتون باستمرار في انفجارات الشوارع.

كان سالم يجلس القرفصاء قرب الباب، ويتطلَّع إليَّ باندهاش يخالطه الحزن.. نظر في سقف الغرفة، وقال:

ـ من يدري؟.. ربّما ما زالت على قيد الحياة.

ثم نظر نحوي مبتسمًا بغموض، قبل أن يردف:

ـ لو كانت ميّتة لصادفتها.. لكنْ، ألم تصادفها في شارع ما أو ندوة؟

ـ لا.. حتى لو صادفتها لما عرفتها.. النساء يتغيَّرن بسرعة أكثر منّا في أوقات المصائب، لأنَّهنّ أكثر هَشاشة كما تعرف.. إسمع. مرَّة، شاهدت إحداهنّ على شاشة التلفزيون. كانت تطوّح بذراعيها في الهواء وتلطم رأسها، وتستغيث فوق جثّة ولدها المُقَطَّعة في بركة رهيبة من الدماء بعد انفجار عابر.. كانت ثمَّة بقايا ملامح حُسن قديم بادية على وجهها. فخُيِّل لي أنَّني لو أرجعتها عشرين سنة إلى الوراء لبدَت مثل لمياء.

ـ لمياء؟

ـ لمياء سلمان.. تلك الفتاة المرحة التي اختيرت ملكة جمال الجامعة.

صفن سالم طويلاً، وهو يتطلَّع إلى الفراغ، ثم نفث دخان سيكارته ببطء، وقال:

ـ ما الذي يجري لنا؟.. لِمَ الزمن طاغ إلى هذا الحدّ؟..

ـ الزمن يكون أكثر وطأة وعدوانيّة في الحروب يا صديقي.. يَمرّ على البشر والشجر والحجارة، فيترك آثار أظافره الناشبة بقوّة فوق الصدور.

ـ لكنْ.. أنت مثلاً.. أنظر إليك. تبدو كما لو أنَّك نجوت منه؟!

ـ لا، يا صديقي.. لقد مزَّقني من الداخل وعرَّشَت أشواكه وسط أضلاعي، وإن بدوت معافى من الخارج.

نهض سالم فجأة، وعدّل من وضع السرير، ثم التفت نحوي قائلاً:

ـ نم أنت على السرير.. لا تشغل بالك بي.

وهَمَّ بالمغادرة.

ـ إلى أين؟.. ألا تبيت هنا؟

ـ يجب أن أخرج الآن.. لا تقلق.. أنت هنا في مأمن. سأقضي حاجة وأعود، لأنَّني لا أستطيع الخروج في النهار..

خرج سالم بعد أن أوصد الباب عليَّ، وتركني في حيرتي وخوفي. تفحَّصْت الغرفة جيِّدًا.. ملابسه مُعلّقة بمسمار على الحائط، وحقيبة قديمة في الزاوية. شعرت بدوار وتعب يعتريني، فتمدَّدَت على السرير. كان الضوء الوحيد في الغرفة ينطفئ بين الحين والآخر، فتُطبق الظلْمَة.. وصرت أرى أشباحًا يَمرّون، وما

فتأت أصوات خَفق الأجنحة الكبيرة تتَرَدَّد في أرجاء المنزل. لا أدري كم مرَّ عليَّ من الوقت وأنا نائم.. لكنْ، عندما صحوت، كان ضوء النهار يملأ الغرفة التي بَدَت متروكة منذ زمن طويل.. ارتديت سترتي وحذائي، وخرجت إلى الممرّ بحثًا عن ماء أغسل به وجهي.. هالني منظر المنزل الآيل للسقوط، واندهشت، كيف وصلت إلى هنا الليلَة البارحة.. رأيت ثمَّة زاوية غُطّيت بستارة متّسخة، ما إن أزحتها حتى طالعني خزّان حَديديّ صغير فيه صنبور صدئ.

ـ ثمَّة ماء في الخزّان.. اغتسل وامضِ.. لا تتأخّر.

لَم أتبيّن من أين أتى الصوت.. تلفَّتُّ في أرجاء الباحة، لكنَّني لَم أر أحدًا.. كان صوتًا رجّاليًّا واثقًا تردَّد فجأة من أحد الزوايا. فتحت الصنبور وغسلت وجهي بسرعة، وهممت بمغادرة المكان.. في الطابق الأوَّل، رأيت رجالاً ونساءً يجوبون الباحة في الأسفل.. بَدوا غير مبالين بي، ولم يَردّوا على تحيّتي.. فخرجت مسرعًا إلى الزقاق، ولَم أكن أعرف في أيّ منطقة أنا! فكّرت بصديقي سالم الذي أنقذني من الضياع الليلة الفائتة.. أين يمكنني أن أجده لأشكره على صنيعه.. كان رأسي ضاجًّا بالأفكار والصور والتخيُّلات. لكنَّني شعرت بالراحة، وأنا ألقي بنفسي في لجّة الشوارع المزدحمة في النهار من جديد..

* * *

في شقّتي الصغيرة في الكرّادة، كان كوب القهوة الباردة على حاله فوق الطاولة في الشرفة ومنفضة السكائر أيضًا.. ثمَّة عقبا سيكارة أحدهما من النوع الرفيع الموَشّى بخطّ ذَهَبيّ دقيق وبقايا أحمر شِفاه.. كان ذلك عقب سيكارة نيڤين، زميلتي في الجريدة، التي كَلَّفَها الأصدقاء الاعتناء بي كونها تسكن في الكرّادة أيضًا قريبًا من شقّتي. ولنيڤين هذه قصّة أخرى أثارت تعجُّبي وإعجابي معًا، فقد هَجرها زوجها السابق وسافر إلى أستراليا منذ بدأت الحرب، مصطحبًا معه ولدهما الوحيد سامي، وعلى الرّغم من أنَّه أرسل لها دِعوة للحاق به، إلَّا أنَّ كرامتها لم تسمح لها بذلك كما تقول، فاختارت البقاء مع أمّها المُسنَّة! ولنيڤين هوايات عِدّة، أهمّها الرسم والعزف على البيانو وتربية طيور الحُبّ. مرَّة، دعتني إلى شقّتها لأتعرَّف إلى أمِّها، القابِلة المتقاعدة التي كانت تعمل في مستشفى الراهبات مُنذ شبابها المُبَكِّر، وهناك رأيت قفص

طيور الحُبّ الكبير في شرفتها.. أكثر من عشرين زوجًا من الطيور الملوَّنة تطلق زقزقتها الجميلة في سمفونيّة آسرة، طالما اشتكت منها أمّها المريضة، وفي غرفة صغيرة فائضة على ما يبدو تحتفظ بمرسمها، حيث رائحة الزيت والألوان والرسومات المائيّة، وثمَّة لوحة كبيرة على الجدار لامرأة وحشيّة ترتدي جلد الماعز، وتتزنَّر بعقد كبير من الحجارة الملوَّنة، تُزيح ستارة ما بيد وتحمل كأسًا فخّاريًّا باليد الأخرى، وثمَّة غموض وإعتام في اللوحة، لا سيّما حركة الساقين اللتين بدتا كما لو أنَّهما على وشك اجتياز حاجز ما..

ـ من هذه المرأة في اللوحة؟

ـ إنَّها صديقتي سيدوري..

ـ لديك صديقة اسمها سيدوري؟

ـ لا.. إنَّها سيدوري صاحبة الحانة.. التي روَّضت أنكيدو وواست جلجامش.. ألا تعرفها؟.. ما بك؟

ـ أها!!.. نعم.. تذكَّرت قِصَّة سيدوري صاحبة الحانة.. لكن نيڤين منحتها ملامح وحشيّة غريبة، فيها الكثير من الغموض والإثارة!

ـ هي صديقتك إذن؟

ـ نعم.. في ليالي الشتاء الطويلة، تخرج من الإطار، وتحضر كأسها معها وتجلس معي لتناجيني.. أشكو لها همومي وتشكو لي همومها. مرَّة، حكيت لها عنك..

كانت نيڤين تحكي عن سيدوري بجدِّيّة وفرح أثارا فضولي،

وعندما اقتربتُ من اللوحة، خُيِّل إليَّ أنَّها تبتسم لي، فتراجعتُ بقلق، لكنَّني قَضيت تلك الليلة بطولها ساهرًا بانتظار هبوط سيدوري، من دون جدوى حتى طوَّح النعاس برأسي. وفي الصباح، صحوت على صوت نيڤين وهي تغنِّي مع فيروز، وتعدّ الفطور.. وثمَّة عصير رُمّان وقشطة وعسل..

ـ لم أجد لك الفطائر التي تحبّ. ربّما القشطة تفي بالغرض.

ـ شكرًا.. أحبّ القشطة كثيرًا.

وضعت نيڤين صِينيَّة الفطور على الطاولة في الصالة، ورفعت الغطاء عن قفص الطيور التي أطلقت سمفونيّة الزقزقة بصوت واحد، ثم جلست وهي تتأمّلني بصمت..

ـ تبدو متعبًا.. أكيد لم تنم جيِّدًا البارحة؟

ـ نمت قليلاً.. ما تزال بغداد تدهشني بسحرها المُمزّق بالقنابل.. كما إنّ حكاية عجيبة حصلت معي ما تزال تتناسل برأسي.

ـ أيّة حكاية هذه؟

نظرتُ إليها مليًّا.. كانت تتناول الطعام بأطراف أصابعها، والصليب الذهَبيّ يتراقص بين قوسي نهديها كلَّما تحرَّكَت.. نهضتُ لعمل القهوة في المطبخ، فجاءني صوتها منَ الشرفة:

ـ هل ستخرج اليوم؟

أخرجت رأسي من الباب:

ـ على ما أعتقد.. عليَّ الذهاب إلى شقّتي لتغيير ملابسي..

وربّما أذهب إلى شارع المتنبّي.

ـ فكّرت بالقدوم ظهرًا لأشوي لك السمك الذي تحبّه.

عدتُ ووضعت كوبي القهوة على الطاولة الصغيرة، وأشعلت سيكارة.

ـ هل تعرفين صديقنا سالم محمّد حسين؟

ـ سمعت بهذا الاسم.. نعم نعم.. تذكّرت.. سالم محمّد حسين.. ما الذي ذكّرك به الآن؟

ـ التقيته قبل أيّام.

نظرت إليَّ نيڤين باستغراب مستطلعة!

ـ التقيت بسالم محمّد حسين؟

ـ نعم!!

ـ أين؟

ـ لا أدري.. في مكان ما قرب الميدان.. اصطحبني إلى غرفته القديمة فوق السطح، وبِتُّ عنده.. لولاه لتهت في الأزقّة ليلاً أو أُلقي القبض عليّ..

ـ هل تتحدّث بجدّ؟.. ما بك؟.. هل جننت؟ سالم مات منذ أكثر من خمس وعشرين سنة.. ألم يعدموه بالرصاص وقتها؟

ـ نعم، أعرف ذلك.. لكنَّني مع ذلك التقيته وعانقته.. لم يتغيّر كثيرًا في الواقع.

نهضت نيڤين فجأة بعد أن أطفأت سيكارتها، وهمَّت بالمغادرة.

ـ لا.. وضعك ليس طبيعيًّا.. أنت تخيفني حقًّا. لقد طلبت

منك الكفّ عن تجوالك الغريب في تلك الأماكن المعزولة. أخبرتك أكثر من مرَّة بأنّ المدينة تغيَّرت.. لقد تعبت.. سأخبر أصدقاءك في الجريدة ليجدوا حلًّا، وأُخلي مسؤوليّتي.

كانت نيڤين تتحدَّث بغضب وتطوّح بيديها كعادتها، فنهضت ولحقت بها في الصالة، وأمسكتُ ذراعيها محاولاً تهدئتها.. كانت ترتجف وتبكي بصمت.

ـ لِمَ تبكين الآن؟

رفعت وجهها نحوي ومسحت دموعها:

ـ أنا آسفة.. ليس من حقّي أن أفعل ذلك.

ـ تفعلين ماذا؟

ـ أن أخاف عليك بهذه الطريقة.. فأنا لست أمّك في المحصِّلة.

دوَّى انفجار قريب اهتزَّت له العمارة كلَّها، والتصقت نيڤين بي خائفة.. يبدو أنَّه في الشارع العام القريب. خرجنا ركضًا إلى الشرفة لنستطلع الأمر.. لم نر شيئًا من مكاننا، لكنَّنا رأينا الناس يتراكضون في جميع الاتّجاهات. عادت نيڤين إلى الصالة، وبدأت ترزم أغراضها في حقيبتها الصغيرة على عجل..

ـ إلى أين؟

ـ إلى الجريدة.. لقد تأخَّرت كثيرًا، وسيقلقون عليّ في مثل هذه الأوضاع.

ما إن لفّت نيڤين حجابها الكبير حول رأسها، حتى رَنّ هاتفها النقّال:

ـ ألم أقل لكَ.. ها هم يتّصلون ليطمئنُّوا عليّ.

ودَّعتني وخرجت، وهي تلصق الهاتف على خدِّها بقلق، فارتديت ملابسي وخرجت من فوري.. كنت أنوي الذهاب إلى شقّتي وتبديل ملابسي، لكنّ قوّات الحرس قطعت الشارع العام كلِّيًا، وعمَّت الفوضى، فعدت أدراجي صوب شارع أبي نؤاس للعثور على سيّارة أجرة.

حاول السائق عبور جسر الجمهوريّة صوب الكرخ، لكنَّه كان مغلقًا، فاضطرّ لمواصلة السير عبر شارع الجمهوريّة المزدحم، وقرب الشورجة، اشتدَّ الزحام وتوقَّف السير تمامًا نتيجة انفجار حدث في السوق التجاري على ما يبدو، فاضطررت إلى الترجّل ومواصلة السير باتّجاه الميدان.

كانت الأرصفة ممتلئة بالحفر ومياه الأمطار.. والمساحات السليمة افترشها بعض الباعة ما خلق صعوبة جمَّة في مواصلة المسير. سألت رجلاً يجلس أمام دكّانه:

ـ كيف يمكنني الوصول إلى شارع المتنبِّي؟

ـ اسلك الأَزقَّة أحسن لك..

فسلكت أوَّل زقاق.. لم يكن حال الأزقَّة بأفضل من حال الأرصفة في الشارع الرئيس. وثمَّة أوحال ومياه آسنة وأطفال يلعبون الكرة تحت الشرفات الهرمة الآيلة للسقوط.. انعطفت في زقاق فرعيّ، بدا أضيق من سابقه، لكنَّه أنظف قليلاً، وواصلت السير.. لاقتني صَبيَّة تحمل صِينيَّة فيها بعض الكعك. كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر. شعرها منفوش، وترتدي

ثوبًا متّسخًا وكنزة صوفيَّة مُرقَّعة.

ـ اِشْتَر منِّي، يعطيك العافية..

قلت لها وأنا أواصل سيري:

ـ لا أحبّ الكعك.

فلحقتني متوسِّلة:

ـ اِشْتَر منِّي أرجوك..

ـ لا أحبّ.. الكعك صدّقيني.

استمرّت بملاحقتي، وأمسكت بذيل سترتي..

ـ الله يوفّقك.. والله ما عندي فلوس.. أريد أن أشتري خبزًا لأخوتي.

توقّفتُ، ونظرت إلى سحنتها السمراء التي دبغتها الشمس.. كان وجهها الدائري يَغور في لجَّة شعرها المُجَعّد، وبدا أنفها دقيقًا وعيناها عسليّتين ولا تكاد ياقة الكنزة الصوفيَّة تغطّي رقبتها الطويلة.. كانت تُمسك الصِينيَّة الصغيرة بيد، وتزمّ أطراف الكنزة على صدرها باليد الأخرى..

ـ هل تسكنين هنا؟

ـ لا، أنا أسكن في الصدريَّة.. اِشْتَر منِّي أرجوك..

أخرجت لها ورقة ألف دينار، وأعطيتها لها، فقَدَّمَت لي الصِينيَّة بطريقة مُهَذَّبة.. التقطتُ كعكة واحدة ووضعتها في جيبي كي لا أشعرها بالإذلال. قلت في سِرّي.. هي على الأقلّ لا تستجدي، وتحاول كسب بعض المال بطريقة كريمة! رفعت غرَّتها

المنفوشة عن عينيها، وقالت:

ـ خذ كعكة أخرى.. والله ما عندي باقي أعطيك.

ـ بكم تبيعين الكعك؟

ـ اثنان بربع..

ـ وكم تبيعين في اليوم؟

قالت متمثِّلة لهجة الكبار:

ـ حسب التساهيل.. يوم أبيعه كلّه ويوم نصفه.

ـ وكم تكسبين من ذلك؟

ـ الرزق على الله.. أربعة أو خمسة في اليوم!

ـ هل تعرفين الطريق إلى شارع المتنبِّي؟

ـ نعم.. أنا يوميًّا أذهب إلى هناك لأبيع الكعك.

كان خطّ مسارها اليوميّ يبدأ من الصدريَّة، حيث البيوت الفقيرة مرورًا بمنطقة الفضل ثم الشورجة وصولاً إلى شارع المتنبِّي.. هذه الرحلة اليوميَّة المُضنية تستغرق منها النهار بطوله.

اتّفقت معها على شراء كيلو الكعك الذي معها كلّه.. شريطة أن تَدلّني على الطريق إلى شارع المتنبِّي وسط هذه الأزقَّة الضيِّقة. سرنا معًا مخترقين منطقة الفضل القديمة، وبدت تعرف الأزقَّة والبيوت وأصحاب الدكاكين معرفة جيِّدة..

ـ أنظر.. هنا يسكن گنو أبو الطيور.

ـ من گنو أبو الطيور؟

ـ رجل مُسنٌّ يربِّي الطيور ويبيعهنّ.. يقولون عنه إنَّه يهوديّ.

لكنَّه رجل طيِّب.. دائمًا يشتري الكعك منِّي. وهناك.. أترى ذاك البيت الذي عليه قطعة سوداء؟ هذا بيت بدور.. يقولون إنَّ سمعتها سيِّئة. من يدري؟.. الله العالم. لا نتعرَّض لأعراض الناس.

كانت تتحدَّث بطريقة أكبر من وعيها، كما لو كان عمرها ثلاثين أو أربعين عامًا.. سألتني:

ـ هل تُصدِّق بوجود الجانّ؟

ـ نعم.. أصدِّق.

فأشارت إلى بيت قديم بدا مهجورًا..

ـ هذا البيت.. يقولون إنَّه مسكون. به جنّيٌّ يطلع فقط في الليل ويقطع الزقاق على المارّة.. ويقولون إنَّه يطلع بهيأة امرأة عجوز!

عندما حاذينا البيت، اقتربت منِّي وأمسكت يدي:

ـ هل أنت خائفة؟

ـ نعم.. أنا، كلَّما أمرُّ من هنا أنتظر حتى يأتي أحد المارّة، وأمضي معه..

ـ هل ذهبت إلى المدرسة من قبل؟

نظرت إليَّ باندهاش:

ـ مدرسة؟.. ومن أين يأكل أخوتي الصغار إذا ذهبت للمدرسة؟

ـ كم أخًا لديكِ؟

ـ أربعة.. كلَّهم صغار.. أنا كبيرتهم.

ـ وأمّك وأبوك؟

قالت، وهي ما تزال ترمق البيت المسكون من بعيد:

ـ أبي! أنا لم أره.. وعيت على الدنيا وأنا مع أخوتي فقط. أمِّي قالت إنَّه قُتل في الانتفاضة.. وفي العام الماضي، مرضت أمِّي وماتت.. الحاجّ زيدان لم يحضر لها الدواء وماتت. دفنوها بمقبرة الشيخ معروف.. أعرف الطريق إلى قبرها. في العيد الماضي، أخذت أخوتي وزرناها.. هي أوصتني. قالت لي قبل أن تموت: ماما زينب! انتبهي لإخوتك ولا تتركيهم.. وإذا تستطيعين، أحضريهم بين فترة وأخرى ليسلّموا عليَّ.. لكنْ، لا أستطيع الذهاب إليها باستمرار.. لأنّ اليوم الذي لا أشتغل فيه يموت إخوتي من الجوع..

كانت تتحدّث من دون مبالاة، ومن دون أيّة مشاعر. كما لو كان ما تقصّه من البديهيّات! لكنْ، أشدّ ما هالني هو نضجها المبكّر الذي يسبق عمرها بكثير.. ولهجة البالغين التي تتمثّلها وهي تتحدّث.

دلفنا زقاقًا صغيرًا آخر، بدت البيوت فيه مُتكوّمة على بعضها بعضًا، والأبواب غائرة في الأرض.. كان مُظْلِمًا ورطبًا. ومن أحد تلك الأبواب الغاطسة، أطلَّت امرأة عجوز تحمل مدفأة صغيرة.. خافت زينب، وتشبّثت بذيل سترتي من جديد، وهي تتذكّر حكاية الجنّيّ الذي يخرج بهيأة امرأة عجوز.. قلت لها:

ـ لا تخافي.. مالك؟ إنَّها مجرّد امرأة طيِّبة..

تلفَّتَت المرأة يمينًا ويسارًا في الزقاق متفحِّصة وهي تضع يدها فوق حاجبيها.. بدت كليلة النظر على ما يبدو. عندما اقتربنا منها، قالت:

ـ يعطيك العافية يا ولدي..

ـ أهلاً بالحاجّة.. يا هلا.

ـ الله يحفظ لكِ ابنتك.. هلّا أعطيت هذه المدفأة لحسنين المُصَلِّح؟!

ـ مَنْ حسنين المُصَلِّح يا حاجّة؟ أنا لا أعرفه.

ـ حسنين المُصَلِّح عند نهاية الشارع.. إنَّها المرّة الثانية التي يُصلحها وتتعطَّل. والله قتلني البرد يا ابني!

جَرّتْ زينب طرف سترتي، فانحيتُ باتّجاهها.. هَمَسَتْ:

ـ أنا أعرفه..

ـ حسنًا.. سآخذ المدفأة إلى حسنين.. لكن ماذا أقول له؟ أقصد كيف سيُوصلها إليك؟

ـ فقط، قل له إنَّها مدفأة أمّ نعيم، وهو سيعرف.. سيرسلها بيد صبيِّه.

أخذت المدفأة الصغيرة، وكانت رائحة النفط تفوح منها، ومشيت برفقة زينب.. وَدَّعتنا المرأة العجوز، وهي تدعو لنا بالسلامة والتوفيق.. سألتُ زينب:

ـ هل تعرفين طريق حسنين هذا حقًّا؟

ـ نعم.. أعرفه.. حسنين المصري يوميًّا أمرُّ أمام دكّانه.

ـ مصري؟

ـ نعم.. يقولون عنه مصري! لا أعرف.. لكنْ يحكي عراقي مثلنا.

ـ حسنًا.. لنرَ كيف ستنتهي هذه القِصَّة.

سألتني زينب فجأة:

ـ أين تسكن؟

ـ في الكرّادة..

ـ ماذا؟.. وتأتي مشيًا لشارع المتنبِّي يوميًّا؟

ضحكتُ، وقلت:

ـ لا.. أنا آتي بالسيّارة، فالمسافة بعيدة جدًّا..

ـ حسنًا.. وهل أنت عراقي؟

ـ طبعًا عراقي.. ماذا تظنِّين؟.. هندي مثلاً؟

ضحكت زينب.. وكانت المرَّة الأولى التي تضحك فيها.. فارتسمت نقرتان محبّبتان على طرفيْ فمها الصغير..

أخيرًا، وصلنا دكّانة حسنين المُصَلِّح.. كانت عبارة عن فجوة كبيرة في بناية مُهَدَّمة، تملأها المدافئ المُسخَّمة وأوعية النفط الأبيض، بينما جلس حسنين قرب طاولة قديمة يَقصّ الفتائل النسيجيّة.

ـ السلام عليكم.. أخ حسنين.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أهلاً أهلاً..

كانت لهجته عراقيّة بالفعل، وإن خالطتها لكنة مصريّة

خفيفة.. وضعت المدفأة الصغيرة على الطاولة، وما إن لمحها، حتى قال:

ـ هذه المدفأة، أعرفها.. إنَّها مدفأة الحاجّة أمّ نعيم.. ما الذي حلَّ بها؟.. هل تعطَّلت ثانية؟

ـ لا أعرف.. طلبت منّا تسليمها إليك لتُصلحها وترسلها إليها بيد صبِيَّك..

ـ صبِيِّي؟

تساءل الرجل بحِيرَة..

ـ أين هو صبِيِّي؟ أولاد هذا الزمن لا يعملون يا أستاذ.. إنَّهم جيل الكومبيوتر والموبايل.. البيه لم يأت للشغل اليوم!

ـ وماذا سنفعل في هذه الحال يا حسنين؟

ـ أنا أبو حسنين، وليس حسنين.. حسنين هذا استُشهد في القادسيّة.

ـ أيّة قادسيّة تقصد؟

ـ قادسيّة صدّام يا أستاذ.. ذهب إلى الجبهة مع الجيش الشعبي واستُشهد هناك، ودفنّاه في الخالصة..

ثم أردف:

ـ بجانب أمّه.. فهي الأخرى مدفونة هناك.

حيَّرتني حكاية حسنين أو أبو حسنين هذا.. كانت زينب تنظر إليه باندهاش، وهي تسمعه لأوَّل مرَّة يتحدّث بلهجة مصريّة من دون تحفُّظ. كانت تفغر فاها وهي تقف على مبعدة منّا.. انتبه

إليها أبو حسنين فجأة:

ـ أليست هذه زينب بيّاعة الكعك؟.. ما الذي أتى بكِ مع الأستاذ؟

ـ وعدتها بشراء الكعك منها في حال دلَّتني على طريق شارع المتنبِّي..

ضحك الرجل..

ـ وتشتري الكعك منها يا أستاذ؟! ستجده مُدافًا بالتراب.

ـ وما هَمَّك أنت؟.. الأستاذ يعجبه أن يشتري منِّي..

ردَّت زينب بصوت خفيض.

أجبرنا أبو حسنين على الجلوس أمام دكّانته الصغيرة، وكان السخَام يملأ المكان، وأوصى لي على الشاي.. وراح يحكي قِصَّة مجيئه إلى العراق وهو مُنْكَبّ على تصليح مدفأة أمّ نعيم.

ـ كم مرَّة قلت لها يا أمّ نعيم لا تُنزلي الفتيل إلى الآخِر.. ها هي قد فلتت من جديد.

قال متبرِّمًا.. ثم بصوت خفيض:

ـ هذه السيِّدة لحوحة جدًّا.. لكنَّها طيِّبة يا أستاذ. المسكينة تعيش وحدها في زريبة لا تصلح للبهائم والله!

ـ متى أتيت إلى العراق يا أبا حسنين؟

ـ جئت مع زوجتي المرحومة في الثمَّانينيّات أيّام الخالصة.. هل سمعت بالخالصة؟.. أم كنت خارج البلد؟ شكلك ليس ممّن يعيشون هنا!

ـ لا.. سمعت بالخالصة القرية العصريّة التي أنشأها صدّام للأخوة الفلّاحين المصريين قرب الخالص..

ـ بالضبط.. عليك نور.. ها أنت تعرف الحكاية.. جئنا يا سيِّدي وأعطونا قطعة أرض في الخالصة وعمّرناها وعشنا عيشة نعيم. كان حسنين وقتها عمره سبعة عشر عامًا وهو الوحيد الذي عاش من بين إخوته.. ولمَّا اشتدَّت الحرب مع الإيرانيين، طلبوا من الشباب في الخالصة التطوّع في الجيش الشعبي، وذهب حسنين معهم.. تركهم الجيش في حتّة معزولة فهجم عليهم الإيرانيُّون في الليل وذبحوهم كلّهم.. لمَّا أحضروه ملفوفًا بالعلم العراقي ارتجفت يا أستاذ.. فأنت لا تتصوَّر الحالة التي كنت فيها! دفنَّاه في مقبرة الخالص.. كان العزاء مفخرة والله! الأخوة العراقيُّون لم يُقصّروا بشيء.. وبعد أيّام معدودة، مرضت أمّه من الحزن عليه، وصارت تولول في الليل وتقول لي خُذني لحسنين.. أريد أن أشمّ رائحة ابني حسنين.. كانت حالتها تصعب على الكافر والله يا أستاذ.. احترت في أمرها وعرضتها على أطبَّاء كثيرين. لكنَّها إرادة ربّك.. ماتت بحسرتها. لكن أنا لم أسكت يا أستاذ!

ـ ماذا عملت يا أبا حسنين؟

ـ أصررت على أن تُدفن بجانب ابنها.. لأنَّهم رفضوا في البداية، وقالوا هذه مقبرة شهداء.. قلت لهم لا.. لقد ماتت بحسرته وحرام أن لا تُدفن بجانبه.. فعملوا استثناء. كثَّر الله خيرهم ودفنّاها معه.. الآن ليس لي غيرهم هنا.. أذهب لزيارتهم في كلّ عيد وأقرأ لهم الفاتحة، وأحكي معهم عن الحال

والأحوال التي لا تسرّ في العراق.. فقد خَرَّبَت الحرب كلّ شيء يا أستاذ..

دُهشت لطيبة هذا الرجل وقدرته على تحمُّل المصائب التي واجهها، وإصراره على البقاء في العراق على الرّغم من المصاعب التي واجهته فيه.

ـ المصريُّون كلّهم هربوا يا أستاذ.. قالوا نرجع نموت في مصر من الجوع أحسن من الموت هنا في الحرب.. لم يبق أحد غيري أنا وكم واحد..

ـ ولِمَ لا تغادر أنت أيضًا يا أبا حسنين؟

ـ ولِمَ أغادر؟.. وكم بقي من العمر؟.. وافرض أنَّني غادرت لمصر.. هل أترك ريّا وحسنين مدفونين هنا ولا أحد يزورهم؟.. لقد ارتبط مصيري بمصير هؤلاء الناس الطيِّبين.. وأشار إلى عُمَّال يتراكضون خلف شاحنة في المسطر القريب.

عاد أبو حسنين ليَنكبّ على عمله، وقد انبعث وميض خاطف على محيّاه.. ومن دون أن يرفع رأسه، قال:

ـ هل ترى تلك الفوانيس المُعلّقة كلّها على الجدران؟ هي ليست مجرّد فوانيس يا أستاذ.. هنا تحديدًا، وفي تلك الأنحاء، عندما يَجنّ الليل وتُنير النجوم السماء، أضيئها الواحد من الآخر حتى يفيض النور في الأزقّة كلّها..

ـ ولِمَ تفعل ذلك يا أبا حسنين؟

ـ لا أدري.. فالمدينة تملأُها الملائكة، وأرواحهم الهائمة يجذبها النور.. من يدري! ربّما أحظى ذات ليلة بروح ريّا! قالت

لي مرَّة، ستظلّ روحي تحوم حولك.. لا تبتعد عنّا وأكثِر من النور.. فليس مثله ما يريح الأرواح اللائبة. فهو كالماء بالنسبة للأسماك والهواء للعصافير.. ثم التفت نحوي، وقال بصوت أقرب للهمس:

ـ أنت ما زلت تمشي على الأرض ولم تخض التجربة بعد.

ـ أيّة تجربة تقصد يا أبا حسنين؟

ـ لا يهمّ.. يومًا ما ستكتشفها بنفسك.. لكن احذر! فأنت رجل تقوده أحلامه.. وهذا خطر في زماننا.

انتهى أبو حسنين من تصليح المدفأة. مسح يديه بخرقة قديمة، وأخرج سيكارة وقدّمها لي.. ثم أخرج من أحد الأدراج كيسًا بلاستيكيًّا وأعطاه لزينب..

ـ خذي يا زينب.. ضعي فيه الكعك كي لا يتّسخ.

أخذت زينب الكيس وشمَّته بحذر:

ـ نظيف يا زينب.. نظيف.. ليس فيه رائحة نفط.. الله؟ أليس أحسن من التراب؟

أفرغت زينب محتوى صِينيَّتها في الكيس الصغير وتأبّطتها.. ضحك أبو حسنين.

ـ زينب هذه بنت أصيلة يا أستاذ! تعرف.. هي تكدّ في الشغل من أجل أخوتها الصغار.. أعانها الله.

ـ أعرف يا أبا حسنين.. سمعت قِصَّتها.

اقترب منّي أبو حسنين، وقال هامسًا:

ـ قِصَّة تُدمي القلب! والله يا أستاذ.. أنا أعرف بأنَّك لن تأكل هذا الكعك.. ربّنا يرزقك ويكرمك بمقدار نيَّتك.

أصرّ أبو حسنين على عدم استلام أيّة أجور عن تصليحه لمدفأة أمّ نعيم.. قال:

ـ ستكسب ثوابًا لو تكرَّمت بتوصيلها إليها.. الدنيا برد، وأنا لن أتمكّن من توصيلها إليها قبل أن أغلق الدكّان في المساء..

ـ لا تهتمّ يا أبا حسنين، أنا سأوصلها إليها..

حملت المدفأة، وعدنا أدراجنا أنا وزينب التي وقفت بعيدًا عن بيت أمّ نعيم خوفًا من حكاية الجنّيّ.. طرقت الباب، فخرجت المرأة العجوز وهي تشقّ طريقها بصعوبة.

ـ ها يا ولدي؟.. هل صلَّحَها الأسطى؟

وأخذت المدفأة منِّي..

ـ انتظر.. لا تذهب.

ودخلت المنزل المُظلِم، وهي تشكو من حال المدفأة العتيقة تلك.. ثم خرجت ومدَّت يدها الراجفة باتّجاهي..

ـ هاك.. خذ.. هذا ربع دينار لتشرب به الشاي.

أخذت الربع ومضيت.. سمعتها تدعو لأبي حسنين بالصحّة. قلت لزينب:

ـ أعطتني الحاجّة أمّ نعيم ربعًا وهي تظنَّني عامل أبي حسنين!

ضحكت زينب ضحكة طفوليّة بريئة.. وواصلنا مسيرنا باتّجاه

شارع المتنبّي. وقرب الشورجة، صادفتنا امرأة شابَّة تحمل طفلاً صغيرًا وتستجدي المارّة:

ـ أنا أختكم سوريّة.. ساعدوني الله يرزقكم..

أدخلت يدي في جيبي محاولاً إخراج ورقة ألف دينار، لكنّ زينب سحبت طرف سترتي كعادتها عندما تريد أن تخبرني شيئًا.. فانحنيت باتّجاهها.. همست في أذني:

ـ لا تُصدّقها.. فكلّهنّ حيّالات.

لكنَّني أخرجت ورقة الألف، وأعطيتها للمرأة التي شكرتني بحرارة ودعت لي بطول العمر والستر.. وما إن ابتعدنا حتى عنّفتني زينب:

ـ لِمَ أعطيتها النقود؟.. ألم أخبرك بأنَّها حيّالة.

ـ لا يهمّ.. لنفرض أنّ هناك احتمالاً ولو صغيرًا أن لا تكون حيّالة.. فماذا تصنع في مثل حالتها؟

لم تقتنع زينب بكلامي.. أو ربّما لم تفهمه جيِّدًا! وظلَّت متبرِّمة لفترة. فقرّرت مناكفتها:

ـ لحسن الحظّ أنَّني لست أباك.. لما نجوت من تعنيفك.

أبطأت زينب خطواتها وهي ترمقني.. بدت نظراتها غائمة وحائرة.. ثم أمسكت يدي بقلق وراحت تسير بجانبي وهي مُطرقة إلى الأرض.

ـ ما بكِ يا زينب؟.. هل قلت شيئًا أزعجك؟

ردَّت من دون أن ترفع رأسها:

ـ . . لا . . لا شيء . . تذكّرت أبي الذي لم أره، وتخيَّلته مثلك.

ثم رفعت رأسها فجأة، ولمحت نظرة الحزن في عينيها النديّتين.

ـ لو كنت أبي . . هل ستدعني أعمل في بيع الكعك؟

فوجئت بسؤالها، فجلست لأكون بموازاتها:

ـ الشغل في مثل حالتك ليس عيبًا . . أنت تقومين بعمل نبيل وتساعدين إخوتك الصغار، ولا بُدَّ أنّ الله سيجازيك في يوم ما.

ـ صحيح . . لكنَّني تعبت والله . . أحيانًا عندما أصحو صباحًا، أتمنّى الذهاب إلى المدرسة وأتعلَّم القراءة والكتابة وألعب مع صديقاتي . . لا أدري لماذا أبي فقط هو الذي قُتل في الانتفاضة؟

ثم نظرت إليَّ، وقالت متسائلة:

ـ هل لديك ابنة؟

ـ نعم لديّ ابنة بمثل عمرك.

ـ حقًّا؟ . . ما اسمها؟

ـ ليلى.

ـ الله . . ما أجمله من اسم! الله يحفظها.

قالت ذلك، ثم أطرقت مفكّرة . . ولمحت علامات الفرح الطفولي البريء على محَيّاها . . كانت تمشي بجانبي جذلى، وبدت كما لو أنَّها غير مُصدّقة الأمر، وهي تمسك بيدي متباهية

أمام باعة المفرّق الذين يعرفونها، وتتعمّد إلقاء التحيّة عليهم.. وكانوا يتفاجأون من رؤيتي معها! كان البعض منهم يسألها عن أحوالها، فتتجاهل أسئلتهم وهي تنظر إليَّ بين الفينة والأخرى وتبتسم، حتى وصلنا ساحة الأمين..

ـ من هنا أعرف الطريق.. أُعرّج يسارًا باتّجاه ساحة الرصافي، ومن ثم أدخل شارع المتنبّي..

وأخرجت خمسة آلاف دينار لأعطيها لها، لكنَّها رفضت بشدّة، وبدت منزعجة:

ـ لا، لا.. أنت لا تعرف الطريق جيِّدًا وستتوه حتمًا.. لا بُدَّ من أن أوصلك إلى شارع المتنبّي.

أدركت جذلها برفقتي وعدم رغبتها بالعودة وهي المتعطِّشة لمشاعر الأبوّة، فقرّرت منحها بعض الوقت.. وواصلنا سيرنا باتّجاه ساحة الرصافي.

ـ ما الذي ستفعله في شارع المتنبّي؟

ـ سأمرّ على صديق كنت أوصيته على بعض الكتب.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، سأتّجه إلى الحيدرخانة لتوصيل تلك الكتب إلى بعض الأصدقاء.

ـ حسنًا.. وهل تعرف الطريق إلى الحيدرخانة؟

ـ نعم.. أقصد أستطيع أن أتدبّر أمري هناك.

ـ لا.. الحيدرخانة كبيرة والأزقَّة هناك متداخلة.

ـ سأتدبَّر أمري.. صَدّقيني. الذي يسأل لن يتيه.

ـ دعني آتي معك لأدلّك، فأنت لا تعرف بغداد.. كما لو كنت غريبًا!

وقفت منتصف شارع المتنبِّي، ونظرت في عينيها.

ـ لا، يا زينب كلّ شيء إلّا مجيئك معي للحيدرخانة.. يجب أن لا تطأي هذه الأماكن.

ـ حسنًا، دعني أبقَ حتى تجد صديقك بائع الكتب.. وبعدها سأذهب.

نزلت عند رغبتها المُلحَّة.. كانت تخشى العودة إلى عالمها المرّ، حيث الكعك وسؤال المارّة للشراء منها، ومواجهة الواقع المضطرب في الشوارع وسط زحام السيّارات وضجيج الباعة والحمّالين.. شعرت بالحزن لحالها الأليم، وتمنّيت لو أنَّني أستطيع عمل شيء ما لمساعدتها.. أيّ شيء.. فوجئت بمن ينادي عليَّ.

ـ أستاذ عليّ.. هنا هنا.. أستاذ عليّ.

كان صديقي بائع الكتب يُلوّح لي من بعيد ليدلّني على مكانه وسط الزحام، فاتّجهت نحوه تتبعني زينب كظلِّي.. كنّا نشقّ طريقنا وسط الزحام بصعوبة بالغة. وكانت زينب تجاهد للّحاق بي.

ـ اسمك أستاذ علي؟

ـ نعم.. أنا أدعى علي.

استلمت الكتب من صديقي ونقدته ثمنها.. كانت ثقيلة بعض

الشيء.. خصوصًا كتاب «المستطرف في كلّ فنّ مستضرف». فقد كان مجلّدًا ضخمًا.. إضافة إلى كتابين آخرين هما «طوق الحمامة» وكتاب «تفسير الأحلام» بطبعة تجاريّة، كانت ضويَّة قد طلبت منِّي إحضاره لها، حين سمعت بأنِّي سأحضر بعض الكتب لهند.. لحقتني زينب وهي تقول:

ـ هذه الكتب ثقيلة عليك.. دعني أساعدك بحملها.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر، والزحام على أشدّه في شارع الرشيد.. فوقفت، وسألت زينب:

ـ هل تناولت غداءك؟

فوجئت زينب بالسؤال، ثم سرعان ما رفعت كتفيها وقالت:

ـ أيّ غداء؟.. أنا لا أتناول أيّ شيء حتى عودتي مساء لآكل مع أخوتي.

فدلفت أحد المطاعم، وهي تتبعني.. وجلست إلى إحدى الموائد، بينما ظَلَّت واقفة.

ـ سأنتظرك خارج المطعم حتى تنتهي من غدائك.

ـ لا.. ضعي الصِينيّة جانبًا، واذهبي لتغسلي يديك.

نظرت إليَّ باندهاش وحيرة.. ثم مسحت المطعم بنظرة مسترقة.

ـ ما بكِ يا زينب؟ قلت ضعي الصِينيّة على المقعد، واذهبي لتغسلي يديك.

انتبهت فجأة، ووضعت الصِينيّة على أحد الكراسي،

واتّجهت صوب المغاسل.. فناديت على أحد العُمَّال وطلبت منه إرشادها.

ـ تعالي يا ابنتي.. هناك المغسلة. اغسلي بالصابون وجفّفي يديك.. وتعالي.

ذهبت بخطوات متردّدة.. وجاء النادل، فطلبت منه أن يحضر لنا وجبتيْ كباب وقنّينتي لبن وسَلَطة.. جاءت زينب ووقفت بجانبي.

ـ اجلسي يا زينب.. ما بكِ؟ ألم تدخلي مطعمًا من قبل؟!

ـ لا.. لم أدخل لأتناول الطعام فيه.. فقط لأبيع الكعك، والعُمَّال يطردونني دائمًا.

ـ حسنًا.. لتجلسي على هذا الكرسي قبالتي.

جلست زينب بعد تردّد، وهي ترمق الزبائن وعُمَّال المطعم باندهاش وحيرة.. وبعد أن وضع النادل الطعام على الطاولة أمامنا، سألها:

ـ هل أحضر لك قنِّينة ماء؟

ـ لا.. لا أريد ماء.

ونظرت إليّ وابتسمت بخجل طفوليّ، فطلبت منها أن تأكل بهدوء وتنسى الآخرين في المطعم..

ـ هذا الأكل كلّه لي؟

ـ نعم.. كلّه لك.. كلي ولا تخجلي.

بدأت بتقطيع الكباب إلى قطع صغيرة، وصارت تأكل

ببطء.. وبين الفينة والأخرى، ترمقني خلسة، فتعمَّدت عدم النظر إليها كي لا أشعرها بالإحراج. كان ثمَّة رجلان من جنود الحرس الوطني يجلسان إلى الطاولة المجاورة يتناولان الغداء.. ظَلّا يرمقانها باستغراب.. شعرت زينب بنظراتهما، فارتبكت.

ـ كُلِي بهدوء، ولا تبالي بهم يا زينب!

بعد برهة قصيرة، توقّفت زينب عن الأكل واكتفت بشرب اللبن..

ـ لِمَ لا تأكلين؟.. هل شبعت بهذه السرعة؟

ـ هذا كثير.. لا أستطيع أن آكله كلّه!

ثم مَدَّت رقبتها باتّجاهي، وقالت بصوت خفيض يشبه الهمس:

ـ هل أستطيع أن آخذه معي لأخوتي؟

ناديت على النادل، وطلبت منه أن يرزم الأكل المتبقّي منها في كيس لتأخذه معها.. فانفرجت أساريرها، وومضت عيناها من الفرح.

خرجنا من المطعم، وهي تحمل كيس الكباب بيد والصينيّة باليد الأخرى..

ـ حسنًا يا زينب، لقد حان الوقت لعودتك إلى البيت.. خذي هذه الخمسة آلاف ثمن الكعك..

نظرت إليّ بحزن، وقالت:

ـ لا.. لا آخذ نقودًا منك.

ـ ماذا؟.. ولِمَ لا تأخذين يا زينب؟

ـ أنت رجل طيِّب، وأنا أستحي أن آخذ منك ثمن الكعك.

ـ ولو يا زينب.. هذا حقّك! ألم أشتر منك الكعك؟ لقد كان هذا اتّفاقنا منذ البداية.

ـ صحيح.. لكنَّني أعرف أنَّك لن تأكل الكعك.. أنت فقط تريد مساعدتي.

ـ لا.. أبدًا.. قلت لك إنَّني سآخذه معي لأصدقائي.

ـ حسنًا.. لكن أين أراك ثانية؟

احترت أمام تساؤلها الطفولي ولهفتها البريئة.

ـ أنا آتي كلّ يوم جمعة إلى شارع المتنبّي.. ربّما نلتقي هنا في يوم ما يا عزيزتي!

ـ أتمنّى أن تأتي إلينا في أحد الأيّام حتى ترى أخوتي وأريك صور أمِّي.. نحن نسكن في الصدريَّة قرب مكتب البريد.. فقط، اسأل عن بيت الحاجّ زيدان الندّاف سيدلّونك.

مَدَّت يدها الصغيرة، وأخذت ورقة الخمسة آلاف وخبّأتها في جيب كنزتها الصوفيّة.. وكان الحزن باديًا على وجهها الصغير. لَوَّحَت بالصِينيَّة الفارغة، وظَلّت واقفة ترمقني بنظرة ملؤها الحيرة.. مددت لها يدي مصافحًا، فأمسكت بيدي وصافحتني بحرارة.

ـ اذهبي من فورك إلى المنزل، وحاولي أن تأخذي شيئًا لأخوتك، وسلّمي عليهم.

ردَّت متلعثمة:

ـ حسنًا.. سأذهب.

بقيت واقفًا أنظر إليها وهي تجرُّ خطواتها جرًّا، حتى ضاعت في الزحام.. فاستدرت ومشيت ناحية الحيدرخانة، يملأني الحزن عليها وعلى مصير أخوتها الصغار.. كنت طول الطريق أفكّر بها، وأتخيَّل فرحتها البريئة وهي تدخل على أخوتها بكيس الكباب.. وتعجّبت لقدرتها على الصمود أمام مصاعب الحياة اليوميَّة وتقلُّباتها.. كنت أمشي ساهمًا حتى وصلت إلى منطقة الميدان. ومن هناك، دخلت عبر سوق الهرج القديم باتّجاه الحيدرخانة.. وسرعان ما تقاذفتني الأزقَّة الغريبة، وكلّ عطفة تفضي بي إلى عطفة أخرى.. حتى شعرت باليأس. حاولت تذكُّر الطريق الذي سلكناه أنا وصاحبي قبل أيّام من دون جدوى.. وكنت أشاهد بعض عُمَّال النجارة بين الفينة والأخرى يعملون أمام البيوت القديمة التي حوّلوها إلى مخازن للأخشاب.. لكنَّني تردَّدت في سؤالهم.. خصوصًا وأنَّني سمعت بأنّ المنطقة عرضة لمداهمة الميليشيات المُتشدّدة في أيّة لحظة بحثًا عن بيوت الدعارة لإقامة الحدّ على ساكنيها ومرتاديها على حَدّ سواء.. ومن النادر أن تشاهد امرأة تمشي في تلك الأزقَّة. كما إنّ تلك الأرجاء كانت قد شهدت معارك طاحنة في أوقات مختلفة بين الميليشيات المتصارعة على مناطق النفوذ.. وبما إنّ الأزقَّة متشابكة وأغلب البيوت مُهدَّمة أو آيلة للسقوط، فهي تعدّ صالحة لحرب شوارع مثاليّة..

مضى عليّ أكثر من ساعة وأنا أدور في متاهة لا تنتهي من

الأزقَّة، حتى كاد اليأس يتلبّسني.. فقرّرت الخروج من جديد إلى الشارع العامّ وإعادة الكرّة.. لكنَّني أضعت الطريق إلى الشارع العامّ أيضًا.. وفجأة، في أحد المنعطفات، شاهدت عجوزًا يجلس على صفيحة مقلوبة أمام دكّانة صغيرة وهو يدخِّن.. كان منظره غريبًا بعض الشيء، إذ عصب رأسه بعصابة حمراء مرقّطة على طريقة القراصنة، بينما انبثق شعره الأشيب الكثّ من تحتها بغزارة حتى اختلط بشعر لحيته الطويلة وشاربيه.. قلت في سرّي هذا هو مُخَلِّصي.. وقرَّرت أن أسأله، طالما إنّ منظره لا يوحي بمنظر رجال الميليشيات أو رجال الأمن.. اقتربت منه بهدوء.

ـ السلام عليكم.

تطلَّع إليّ الرجل من دون أن يتحرّك:

ـ أهلاً..

كانت طريقته الباردة في ردّ التحيَّة لا تشجِّع البتَّة على المُضيّ في الحوار معه.. وقرّرت مواصلة السير، لولا أنَّه أردف قائلاً:

ـ تفضَّل.. اجلس.

وأشار إلى صفيحة مقلوبة قريبة.. فاقتربت منه بحذر، وجلست. مَدَّ لي يده ليصافحني.

ـ مجر.

ـ نعم؟

ـ مجر.. اسمي مجر.. تاجر عتيق.

ـ آآآ.. أهلاً وسهلاً تشرَّفت.. اسمي علي.. صحفي.

سكت الرجل، وأخذ يدخّن بهدوء وينفث دخان سيكارته عاليًا في الهواء.. استرقت النظر إليه. بدا مثل تمثال قديم يتّكئ على الجدار المُحَدَّب، وقد رسمت هالة الدخان غيمة زرقاء مترجرجة حول رأسه الأشيب.. نظر نحوي فجأة وهو يُقطّب حاجبيه كمن يتفحَّص شيئًا بإمعان.. ثم نظر إلى الأعلى، وقال:

ـ الشغل ليس جيِّدًا هذه الأيّام.. الحال واقف.

حاولت مجاراته لعلّي أحصل منه على معلومة ما.

ـ نعم.. الأوضاع مضطربة والناس خائفة.

كان ثمَّة تجعيدتان كبيرتان على جانبيْ فمه، جعلتاه يبدو كما لو كان مبتسمًا طول الوقت على الرّغم من جدّيّته ولامبالاته..

ـ عمّن تبحث بالضبط؟.. فأنت تدور في الأزقَّة منذ ساعتين.

فاجأني سؤاله وأربكني، كما أثار الشكوك لديَّ.. فكيف عرف أنَّني أدور في الأزقَّة منذ ساعتين؟

ـ أنت تدور في حلقة مفرغة.. رأيتك مرّتين.. تخرج من الزقاق المقابل وتدخل زقاقًا آخر لا يفضي إلى شيء.

ـ أنا تائه في الحقيقة.. أبحث عن بيت هنا، ولم أجده حتى الآن.

ـ تبحث عن بيت أمّ صبيح؟

فاجأني سؤاله اللامبالي مرَّة أخرى، وشعرت بالخوف.. لكنَّني استجمعت شجاعتي، وسألته:

ـ نعم.. أنا أبحث عنه منذ ساعتين.. لكن كيف عرفت؟

نظر إليّ الرجل ثانية، وهو يقطّب حاجبيه.. وبدا مبتسمًا، أو على الأقلّ هكذا خُيّل إليّ.

ـ شكلك ليس من المنطقة.. ولا من عُمَّال النجارة. وجودك هنا فيه خطر عليك..

سقط الأمر بيدي واشتعلت شكوكي.. لكنَّه أردف:

ـ أنا مجر عمارة.. ألا تعرفني؟

ـ للأسف.. لا.

ـ الجميع يعرفني هنا.. أنا أعيش في الميدان منذ الثلاثينيّات. ألم تحدِّثك أمّ صبيح عنِّي؟

ـ أمّ صبيح؟.. لا، لا.. لم أتحدّث إلى أمّ صبيح، ورأيتها مرَّة واحدة.

ـ لأجل مَن من البنات جئت؟

ـ أنا؟.. أيّة بنات تقصد؟

ـ هند؟..

كان يسأل بطريقة متأنّية ومباشرة.. كما إنّ منظره يوحي بالرصانة والاحترام أكثر ممّا يبعث على القلق في الواقع.. رمى عقب سيكارته بعيدًا، وقال:

ـ أنت مسحور.. سحرتك هند.. وإلّا ما كنت لتغامر وتأتي إلى هنا في مثل هذا الوقت!

تطلَّعت إلى دكّانته الصغيرة. لا تحتوي شيئًا يذكر.. سوى

بعض القطع والتماثيل الحديديَّة الصدئة وبعض المسبحات القديمة والصور المتهرئة.. فنهضت محاولاً المُضيّ في طريقي، لكنَّه استوقفني متسائلاً:

ـ إلى أين؟.. ألا تريد الذهاب إلى بيت أمّ صبيح؟

ـ بلى.. لكنَّ أسئلتك تقلقني في الحقيقة.

ـ لا.. لا.. لا تقلق.. أنا أنتظر هنا لأوصلك إليهم.

ثم نهض ببطء وسار في الزقاق، فتبعته.. كان يمشي بصعوبة بالغة، ويستند إلى الجدران بين الحين والآخر.. مررنا بأزقّة لم أشاهدها من قبل، وممرّات مظلمة تنحشر بين البيوت المهجورة التي تندلق نوافذها عن ظلمة مخيفة.. وكنت أتحاشى النظر إلى أجواف تلك البيوت. صادفنا رجل مُسنّ آخر. خرج بشكل مفاجئ من زقاق جانبيّ، وحاذانا.. لدرجة شممت معها عطر غريب كان ينساب خلفه.. بدا مجر كما لو أنَّه لم يره. لكنَّه رمقني وطيف ابتسامة عابرة على محيّاه قبل أن يختفي في فتحة أحد الجدران.. انتابني الخوف واعترتني القشعريرة، وأنا أتبع مجر العجوز الذي بدا غير مبال.. وفجأة، سمعت امرأة تضحك خلفنا فالتفتُ، لكنَّني لم أجد أحدًا.. ثم تناهى إلى سمعي صرير باب يُغلق بمزلاج، وشممت رائحة طعام يُطبخ.. اقتربت أكثر من مجر لأستفهم منه عمّا يجري هنا وسط هذه المتاهة، لكنَّه تجاهلني، وبدا يتمتم بكلمات غامضة.. فاشتعل الخوف في رأسي.

ـ هل تحدّثني يا عم مجر؟

بدا كما لو أنَّه لم يسمع كلامي، ورفع يده بالتحيّة.

ـ هلا يابا.. هلا.

ازدادت حيرتي بعد أن أدركت أنَّه يلقي التحيَّة على أشخاص يراهم ولا أراهم، وبتّ أتلفَّتُ خلفي وأنا أحاول تحاشي الأنقاض، واعتقدت أنَّه مجنون يقودني إلى حتفي، وفكّرت بالعودة والفرار من هذه الأنحاء الغريبة.. لكنَّه توقّف فجأة، ونظر إليَّ باستغراب وهو يقطّب حاجبيه كعادته.. خبط طائر ما كبير الحجم على ما يبدو بأجنحته فوق رؤوسنا، فتطلَّع الرجل إلى الأعلى وهو يبتسم.. ثم عاد للتطلّع إليَّ مبتسمًا بحقّ هذه المرَّة، لدرجة شاهدت معها أسنانه الصفر.

ـ هند تنتظرك.. تعال.

ثم جَرّني من ذراعي، وأدخلني فجأة في الزقاق الصغير الذي يتصدّره الباب القديم ذو الدكّات الثلاث..

ـ هذا هو البيت.. تفضّل بالدخول. إن احتجتني تجدني فوق.

وأشار بيده إلى الأعلى.. لم أفهم ما يقصده، لكنَّني شكرته بحرارة، وانتظرت أمام الباب حتى اختفى ثانية في الزقاق.. طرقت الباب، لكن لا مُجيب.. فطرقت ثانية بقوّة أكبر.. أيضًا لم يجب أحد! دفعت ظلفة الباب بحذر، ودخلت.. وعندما صرت وسط الباحة، ناديت على طريقة صاحبي..

ـ أمّ صبيح.. يا أمّ صبيح.

ليس من مُجيب.. وبدا البيت كئيبًا تملأه الأزبال وغرفه مقفلة، وأدوات المطبخ التي كانت في زاوية الطبخ مبعثرة وقد

جَفَّت عليها بقايا الطعام.. وفي عتمة المساء، بدت الظلمة أكثر كثافة في الزوايا.. أجفلني صوت الطائر الكبير وهو يخبط بجناحية في سماء الباحة. نظرت إلى الأعلى لكنَّني لم أر شيئًا. كان الخوف قد سيطر عليَّ تمامًا، وبتّ أتعثّر في مُكوِّنات الباحة من الأحذية القديمة والطناجر المُهَشَّمة، فخرجت مسرعًا إلى الزقاق وهالني منظر مجموعة من النسوة يتلفَّعن العباءات السود ويمضين سريعًا، فتبعتهنّ.. علّهنّ يرشدنني إلى الطريق! لكنَّهنّ كنّ يسرن بسرعة غريبة وسرعان ما بدأن يتناقصن. بعد أن أخذن يدخلن في الفتحات الجانبيّة المُظلمة، الواحدة تلو الأخرى، حتى بقيت واحدة منهنّ فقط.. كان جذعها قصيرًا بعض الشيء ومشيتها منتظمة، فتبعتها حتى انعطفت في زقاق جانبيٍّ، فانعطفت وراءها وبقيت أتبعها من زقاق إلى آخر حتى تناهت إلى سمعي ضَجّة الطريق العامّ ومنبّهات السيّارات وأصوات الباعة، فأدركت أنَّني صرتُ قريبًا من الشارع الرئيس.. واختفت المرأة فجأة في الزقاق الأخير. تلفَّتُّ باحثًا عنها من دون جدوى.. فخرجت للطريق العام؛ وحالما وصلت أحد المقاهي، جلست على مصطبة خشبيَّة وأنا أرمق المارّة بنشوة وارتياح، وطلبت الماء من النادل بعد أن أخرجت سيكارة وأشعلتها بيدي الراجفة وسحبت نَفَسًا عميقًا.. ثم فجأة، شعرت برجل قصير يرتدي نظّارة طبِّيَّة سميكة يجلس قبالتي ويرمقني باستغراب! فعادت شكوكي من جديد وأنا أنظر إليه بريبة.. لكنَّه بادر متسائلاً بطيبة:

ـ يبدو عليك التعب.. هل من خطب؟

* * *

لم أنم تلك الليلة، واشتعلت الأسئلة برأسي.. استعدت أحداث اليوم الغريبة، وتراءت لي زينب وهي تضحك ضحكتها الطفوليّة والنقرتان المحبَّبتان اللتان على طرفيْ فمها الصغير.. تذكّرت «أبو حسنين» وحكايته الغريبة، وتلك المرأة العجوز صاحبة المدفأة النفطيّة، والتعرُّف إلى مجر عمارة بشخصيَّته العجيبة.. كانت تلك الأحداث تمرُّ أمامي مثل شريط سينمائيّ ظَلّ يكرِّر نفسه طول الليل.. حتى رَنّ هاتفي. فصحوت متثاقلاً.. كانت نيڤين على الطرف الآخر تسألني عن سبب عدم مجيئي اليوم:

ـ هل يُعقل هذا؟.. الساعة قاربت الثانية عشرة، وما زلت نائمًا؟!

حاولت أن أستجمع قواي وأركّز أفكاري.. عاد صوت نيڤين الناعم من جديد:

ـ ماذا هناك يا عزيزي؟ لقد أقلقتني؟

ـ أنا تعب جدًّا يا نيڤين.. أعتقد أنَّني لن أستطيع المجيء اليوم.

ـ هل تريد أن أمرّ عليك؟.. ربّما تحتاج لمساعدة أو دواء!

ـ لا.. لا.. لا تقلقي. مجرَّد تعب مفاجئ.. سأتّصل بك في المساء.

كان رأسي مصدوعًا وبدت ذاكرتي مائعة، وبقيت مستلقيًا في فراشي حوالى الساعة.. حتى استجمعت قواي ونهضت. أخذت حمّامًا ساخنًا وعملت قهوة وأشعلت سيكارة، وكانت يدي ترتجف من الإجهاد..

جلست في الشرفة متأمِّلاً زوج فواخت في قلب نخلة عالية، تطِلّ على شقّتي من الفناء المجاور.. كان نهارًا رائقًا من نهارات بغداد المكتوية في العادة. تناهى إلى سمعي صوت انفجار بعيد، وسرعان ما صعدت هالة من الدخان الأسود في سماء المدينة، وتصاعدت منبّهات سيّارات الإسعاف وحَلَّقت بعض مروحيّات.. كانت الفواخت تعبث في قلب النخلة غير عابئة بما يجري.. رَنّ هاتفي كثيرًا، لكنَّني لم أجب. وما زال ذهني منشغلاً بأحداث اليوم الفائت.. رَنّ جرس الباب هذه المرَّة. فنهضت وفتحت.. كانت نيڤين تتنكّب حقيبتها الكبيرة، وتفرد كفّيها أمامها متسائلة:

ـ ما بك يا رجل؟ أقلقتني بحقّ..

ما إن دخلت حتى رمَت حجابها الذي تتلفّع به على الأريكة، وجلست محاولة التقاط أنفاسها بسبب صعودها السلّم الطويل..

ـ هل أعمل لكِ القهوة؟

ـ تعال.. اجلس.. أريد أن أعرف ما الذي جرى لك؟.. طلبت إذنًا من العمل لآتي وأطمئنّ عليك.

ـ لا تشغلي بالك يا عزيزتي.. أنا بخير.

ـ لا.. لست بخير.. أنا أعرفك. من صوتك في الهاتف، عرفت ثمَّة أمر ما..

ـ قلت لكِ لا شيء.. مجرّد تخيُّلات أو ما شابه أتعبتني.

ـ قل لي أوَّلاً.. هل عدت لقِصّة هند وصديقك سالم؟

نظرت إليها باندهاش.. وبدت غير مبالية متشاغلة بالبحث في حقيبتها عن علبة سكائرها.. أحضرت علبة سكائري، وقدَّمت لها واحدة.. أشعلتها بهدوء وراحت تدخِّن باسترخاء.

ـ كيف عرفت بقِصّة هند وصديقي سالم؟

نظرت إليّ مبتسمة، ومدَّت يدها ماسحة خدّي..

ـ يا عيني عليك.. أنت متعب بحقّ!

ظَلّت تنظر إليَّ وهي تبتسم.. فنهضت محاولاً التخلُّص من الإحراج.

ـ سأعمل لكِ القهوة..

ـ اجلس.. قلت لك لا أريد قهوة.. فقط احكِ لي ما الذي حصل معك..

جلست مجبرًا، وحكيت لها ما جرى لي يوم أمس، وكيف قابلت مجر.. كانت تصغي باهتمام ودهشة. وحين انتهيت من

روايتي، مدَّت يدها لتجسّ جبيني.

ـ وضعك ليس طبيعيًّا.

ـ لا تسخري منِّي.. أرجوك! أنا جادّ.. حكيت لكِ ما حصل بالضبط.

ـ أنا لا أسخر منك يا صديقي.. لكن أرثي لحالك.

ـ وكيف أفهم رثاءك هذا برأيك؟

ـ أقصد أنَّني أفهم وضعك جيِّدًا.. لقد غبت عن بغداد أكثر من خمسة وعشرين عامًا.. المدينة تغيّرت وملامحها طُمست، والناس غير الناس.. عليك أن تحذر. الأوضاع هنا ما زالت خطرة.. رجل مثلك! ما الذي يأخذه لمثل هذه الأماكن؟

ـ لكنْ هذا ما حصل.. صدّقيني.

ـ وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

ـ لا أدري.. ربّما سأُعيد الكرّة ثانية.. يجب أن أعثر على المنزل. وَعَدتُ هند بأن أوصل إليها مجموعة من الكتب طلبتها منِّي..

تذكّرت الكتب التي ابتعتها من شارع المتنبِّي أمس.. أين هي؟.. لم أجد لها أيّ أثر.. هل نسيتها في مكان ما؟ لكن أين؟ أمام دكّانة مجر أم في البيت الخَرِب الذي دلَّني عليه؟! لا أتذكّر أنّني كنت أحمل كتبًا بيدي عندما قابلته.. أين يمكن أن تكون؟.. ربّما في المقهى الذي جلست فيه، حيث كان الرجل القصير ذو النظّارات السميكة يرمقني.. رأت نيڤين حيرتي وانشغالي.

ـ لا.. صدقًا أنت تعبان! حاول أن تأخذ قسطًا من النوم، وسأتّصل بك مساءً لأطمئنّ عليك.. ونهضت.

ـ إلى أين؟.. ابقي قليلاً.

ـ قلت لك.. استأذنت لساعة واحدة.. يجب أن أعود الآن.

لفَّت الحجاب حول رأسها، وتَنَكَّبت حقيبتها الكبيرة من جديد.. اقتربت منِّي ومسحت خدِّي بيدها ثانية.

ـ أعرف ما جرى لك.. هذا يحصل معنا جميعًا هنا. لكنَّك جديد على المدينة. عدني بأن لا تغامر ثانية.

خرجت على عجالة، وتركت بقايا عطرها تعبق في الصالة.. فعدت لجلستي في الشرفة وأنا أحاول تجميع خيوط القِصَّة المتشابكة. صفَّقت الفواخت بأجنحتها مُحلِّقة بعيدًا، وتناثر عمود الدخان الذي خلَّفه الانفجار البعيد.. منفوشًا في السماء مثل غيمة محترقة. قاربت الساعة منتصف النهار، وعبثًا حاولت الاتّصال بصديقي محمود الذي رافقني بجولة البارحة.. كان هاتفه مشغولاً طول الوقت حتى احترقت أعصابي. رميت الهاتف جانبًا، وارتديت ملابسي، وخرجت من شقّتي باتّجاه شارع أبي نؤاس.. ربّما يكون الازدحام أخفّ قليلاً من هذه الناحية! أوقفت أوَّل سيَّارة أجرة صادفتني، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى شارع المتنبِّي.. لكنّ السائق اعتذر بأدب. قال إنّ الازدحام على أشدّه الآن في شارع الجمهوريّة.. وبعد فترة صمت، قال:

ـ اسمع.. يمكنني أن أوصلك إلى ساحة الشهداء في جانب

الكرخ، ومن هناك تعبر الجسر سيرًا فتكون في شارع المتنبّي..

وافقت على مقترحه وصعدت معه.. كان يسمع أخبار الانفجارات عبر الراديو بعدم اهتمام.

ـ تسعة انفجارات حتى الآن.. وما زلنا بمنتصف النهار!! سيحرقون بغداد من الآن حتى المساء.

كان في الخمسين من العمر تقريبًا، وبدت على كفَّيه آثار حروق قديمة.

ـ كيف تتمكَّن من العمل وسط هذه الازدحامات ونقاط التفتيش والانفجارات التي لا تنتهي؟

نظر إليَّ مستغربًا سؤالي..

ـ لقد خبرنا الموت يا أستاذ.. أنا شخصيًّا استشهدت في القادسيّة. ثم تبيّن أنَّني فقدتُ في الشِيب. وبعد ذلك، أُسرتُ في إيران. وبعد سنين وجدت نفسي في مَصحّة عقليّة.. هذه السيَّارة الثانية التي اقتنيها بعد أن احترقت الأولى في انفجار الصدريَّة. خرجت منها محترقًا، وتَعجَّب الناس كيف نجوت من الحادث! أنا ميِّت يا أستاذ من زمان.. فهل يخاف الميِّت من الموت؟

مرّة أخرى، خُيّل إليّ أنَّني رأيته في مكان ما.. في جبهة ما من جبهات الحروب أو في منفى ما من المنافي البعيدة.. بدا وديعًا وصادقًا ولامباليًا، وهو يحدِّثني عن معاناته اليوميَّة.. وعندما توقّفنا في أحد التقاطعات، سمعنا دويّ انفجار شديد.. كان قريبًا جدًّا هذه المرَّة لدرجة أنّ القصف أطار لافتة المرور التي أمامنا. كاد قلبي ينخلع من مكانه. بينما ظَلّ هو هادئًا

ولامباليًا.. ثم علَّق ببرود:

ـ هذا الانفجار العاشر.. ألم أقل لك؟

كانت ساحة الشهداء كئيبة وخربة تملأها الأزبال والنفايات وأكياس القمامة، بينما جلس باعة السمك والأجبان أمام عرباتهم يهشّون الذباب عنها.. وعلى مقربة، جلس عدد من رجال الحرس يتناولون غداءهم قرب أحد المدرّعات الكبيرة.. عبرت مشيًا من جانب الكرخ إلى الرصافة. بدا جسر الشهداء منخسفًا قليلاً في المنتصف، وفقدت حدبته انحناءتها الأزليّة.. وبين باعة الأسماك والجبن في جانب الكرخ وباعة القرطاسيّة في الرصافة، رسمت بعض الطيور أقواسها في سماء المدينة المُبقَّعة بنقاط التفتيش ومدرّعات الهمر الهجينة المتدثِّرة بالأتربة.. هكذا بدت لي بغداد في اليوم الأوَّل من العام الجديد، وأنا أعبر الجسر راجلاً باتّجاه مكتب صديق لي يعمل في مجال الطباعة في شارع المتنبِّي.. وأمام المدرّعة مباشرة، جلس رجل معاق، قطيع الساقين.. يستجدي المارّة، والريح تطوّح بطرف يشماغه المتَّسخ. وهبته دينارًا من قطع الألف دينار المتهرِّئة التي أعطاها لي سائق سيَّارة الأجرة حين نقدته ورقة العشرة آلاف النظيفة.. تلك الأوراق المتهتّكة التي طالما أثارت مخاوفي واستفزّت هاجسي بالنظافة.. وفي مكتب صديقي صاحب المطبعة، أتت سيِّدة شابَّة تستجدي من تعتقدهم تجّارًا أو رجال أعمال أثرياء.. قالت إنّ زوجها قُتل في انفجار ما، وترك وراءه ستّة أطفال!

ـ هل ترضون أن أمشي في طريق الرذيلة؟

قالت المرأة متسائلة.. لكنّ الرجال التجّار نهروها وأخبروها بأنّ الله سيساعدها في يوم ما. وعندما خرجت منكسرة ويائسة من حلول ذلك اليوم الموعود، أخبروني بأنَّهم يشاهدون العشرات مثلها يوميًّا..

ـ إنَّهم دجَّالون..

قال أحد العُمَّال.

لكنَّني لم أقتنع بكلامهم، وخرجت وراءها لأنقدها ورقة ألف دينار.

ـ الله يعطيك العافية ويعلّي مراتبك ويرزقك..

وفي لحظة ما، لمحت خيط حسن في طرف عينيها الواسعتين. خيط شفيف انسلّ فجأة من طرف العباءة التي كانت تزمّها فوق فمها.

ـ هل صحيح أنَّك تمتهنين الاستجداء؟

نظرت إليَّ مُتحيِّرة.. ثم استرقت النظر إلى الزقاق، كما لو كانت تريد أن تخبرني بسرّ!

ـ رأيتك من قبل.. لكن لا أدري أين؟

أمعنت النظر إليها.. مسحت وجهها بطرف عباءتها، واختلجت نظراتها قليلاً ثم أطرقت..

ـ نعم تذكّرتْ.. ألم تكن في بيت أمّ صبيح قبل أيّام؟

ذُهلت من سؤالها.. بدت خجولة جدًّا ولا تكاد ترفع نظرها. ارتبكت أكثر وتلعثمت، ثم استدارت ذاهبة.

ـ لا، لا.. ربّما لست أنت.. أعتذر فقد أزعجتك.

لحقتُ بها وأمسكت بذراعها، فتفاجأت من حركتي وارتبكت..

ـ أنا آسفة.. والله لم يكن قصدي..

ـ لا يهمّ.. أنا أعتذر. لكنْ.. نعم. أنا كنت في بيت أمّ صبيح قبل أيّام.. هل تعرفين الطريق إليه؟

نظرت إليَّ الشابَّة مُتحيِّرة.. ومرَّ بعض الرجال وهم ينظرون إلينا باستغراب وفضول.. قالت:

ـ نعم.. وكيف لا أعرفه وأنا أسكن فيه؟

ـ حسنًا.. هل تستطيعين اصطحابي إلى هناك؟

عادت إلى التلفّت يمينًا ويسارًا، ثم قالت بصوت خفيض لا يكاد يُسمع:

ـ أستطيع.. لكن ماذا سيقول الناس عندما يرونك تمشي معي؟

ـ لا يهمّ.. سيري أمامي وسأتبعك.

مشت مبتعدة عنِّي بهدوء وسط زحام السوق، فتبعتها عن بعد.. كانت بين الحين والآخر تلتفت وراءها بقلق واضح.. لكنَّها واصلت سيرها حتى خرجت من السوق وولجت زقاقًا صغيرًا. وكنت أتبعها بحذر خوف أن تضيع منِّي وسط الأزقَّة المتداخلة.. مَرَّت أمام رجل يجلس على طرف عربته الخشبيَّة، وبدا كما لو أنَّه لم يرها.. لكنَّه ركّز نظره عليَّ بإمعان. تجاهلته وأنا أحثّ الخطى خلف الفتاة التي ابتعدت قليلاً، ثم اختفت في إحدى العطفات.. أسرعت الخطى محاولاً اللحاق بها. وما إن

تجاوزت الزاوية حتى رأيتها واقفة تنتظر.. فكدت أصطدم بها. كانت نظراتها حائرة وقلقة.

ـ ماذا لديك في بيت أمّ صبيح؟

ـ أريد أن أرى الفتيات هناك.. هل ثمَّة شيء؟

ـ من تريد بالضبط؟

ـ كلّهنّ.. أقصد ضويَّة وهند.

ابتسمت المرأة، وواصلت السير.. لكنْ ببطء واطمئنان هذه المرَّة! وبتّ متأخِّرًا عنها بخطوة واحدة فقط.

ـ هل تعملين معهنّ في البيت؟

ـ تقصد أستقبل الرجال؟.. نعم أنا واحدة منهنّ. لكنَّني في النهار مضطرّة لتمثيل دور المستجدية، لأتمكّن من الخروج وقضاء بعض الحاجات..

ـ ما اسمك؟

ـ إخلاص.. البنات يدعونني لوصه.

مررنا في زقاق ضيِّق جدًّا؛ وفجأة، صادفنا ركامًا كبيرًا من الطابوق والأنقاض القديمة تقطع الطريق.. دفعت إخلاص بابًا خشبيًّا جانبيًّا ودخلت، فدخلت وراءها.. صرنا نجتاز باحة بيت مُهَدَّم بصعوبة.. وبعد أن تجاوزنا ركامًا من الأزبال والقناني البلاستيكيّة، فتحت باب إحدى الغرف المُهَدَّمة. كان الأثاث ما يزال موجودًا تحت ركام الطابوق والتراب، وفي الجدار المواجه لباب الغرفة، ثمَّة فجوة كبيرة تطلّ على منزل آخر.. عبرنا الفجوة واخترقنا باحة المنزل الآخر الذي كان مهجورًا أيضًا، ثم اجتزنا

مجازًا صغيرًا في آخره باب خشبي. فتحت الباب وخرجنا إلى زقاق صغير. كنت أتبعها مندهشًا لقدرتها على معرفة تلك المسالك المتداخلة والمُعقَّدة.. كانت الأزقَّة تضيق وتتّسع، وبدت الشرفات نصف المُهَدَّمة مثل فكوك حجريّة متهدِّلة تسيل من بين ثنياتها أسلاك الكهرباء المتشابكة. كانت أغلب البيوت التي مررنا بها مهجورة.. سوى البعض منها، أسمع حركة ما داخلها. صوت نسائي متبرِّم، أو رجل عجوز يسعل! أحيانًا، يُخيَّل إليَّ سماع أغنيات بغداديّة قديمة تنبعث من مكان ما وسط الخرائب.. التفتت إخلاص نحوي وهي تبتسم بطيبة:

ـ أوشكنا على الوصول.. هل تعبت؟

ـ لا.. ولكنّني مندهش من قدرتك على معرفة الطريق وسط هذه الأزقَّة التي لا تنتهي!

لم تجب، وظَلّت مبتسمة كما لو كانت تسخر من سؤالي. كانت تسير وهي تزمُّ طرف العباءة بكفّها وتضعه على فمها بحركة عفويّة لافتة، لم أجد لها تفسيرًا.. حتى عندما تتكلَّم معي، تحرص على إبقاء كفّها وطرف العباءة فوق فمها، فتبدو عيناها الجعداوان وفوقهما حاجباها المشذّبان كأجمل ما تكونان، على الرّغم من أنَّها متخفّية بدور المُتسوِّلة هذا. تخيَّلتها في غرفتها تفوح من جسدها المشدود رائحة الصابون، وتأتزر شالاً يبرز جمال كتفيها وصدرها.. وشعرها! ترى كيف يكون؟.. هل هو طويل كشعر ضويَّة أم قصير مثل شعر هند؟ قطعت تأمُّلاتي تلك حين توقّفت فجأة.. فتوقّفت خلفها مباشرة. أشارت لي بالتزام الصمت. وبدت تصغي لحركة ما في الزقاق المعاكس.. وفجأة،

استدارت وأشارت لي بالعودة.. ارتبكت خطواتي وأنا أتبعها. قفزت بسرعة فوق باب قديم منطرح على الأرض، ثم حشرت جسدها في زاوية صغيرة خلف جدار.. وبقيت واقفًا أنظر إليها متعجِّبًا. مَدَّت ذراعها وسحبتني بقوّة نحوها، فانحشر جسدي مع جسدها، وشعرت بأنفاسها فوق صدري ورقبتي. كانت تنظر إليَّ نظرة قلقة، لكنَّها لم ترفع يدها عن فمها.. وشعرت بالحرج إذ كان صدرها ينضغط بقوّة فوق صدري. نظرت إليها وهززت رأسي متسائلاً عمّا يجري.. قطّبت حاجبيها ونظرت إلى الجانب. حجبت غيمة عابرة قرص الشمس، ودهمت العتمة بقايا الأطلال التي ننحشر فيها، وقوقأة دجاجة ما في الفناء المجاور.. ثم سمعت مجموعة من الرجال يمرُّون في الزقاق وهم يتحاورون بغضب. لم أستطع تمييز هيئاتهم من مكاني. لكنَّهم مرُّوا بصخب في الزقاق وراحوا يبتعدون ببطء.. وظَلّت إخلاص متسمِّرة في مكانها ونظراتها نابتة في عينيّ.. مَددت يدي ببطء، ورفعت يدها التي تزمّ العباءة على فمها. مانعت في البداية، لكنَّها استسلمت في النهاية ليدي القويّة، ورفعت حاجبيها مستفسرة، ولمحتُ شفتيها المكتنزتين لأوَّل مرَّة.. ارتبكتْ وأعادتْ طرف العباءة من جديد.. كان وجهها دائريًّا وبشرتها شديدة السمرة. أو هكذا خُيِّل إليَّ! وشعرها الذي ظهرت خصلة طويلة منه مُجَعّدًا وفاحمًا ورائحتها تشبه رائحة قطّ برّي.. بدت الأسمال التي ترتديها غير متناسبة مع جمال جسدها المتناسق المخبوء تحت العباءة الكالحة. حرَّكَت جسدها محاولة الخروج من الزاوية، فقرقعت علبة فارغة تحت قدميها مصدرة صوتًا قويًّا.. عادت بسرعة إلى

مكانها، واحتضنتني وهي ترتجف:

ـ يا إلٰهي.. أخشى أنَّهم قد سمعوا الصوت.

وضعت يدي تحت حنكها، ورفعت رأسها ناحيتي.

ـ اهدئي.. لا تخافي.. من هم هؤلاء؟

وضعت يدها فوق فمي قاطعة كلامي، ثم قالت مرتعبة:

ـ أششش.. هؤلاء جماعة مُلّا جليل.

فتساءلتُ هامسًا أيضًا:

ـ مَن مُلّا جليل؟

لم تُجب، وظَلّت مغطّية فمها وتنبت نظراتها الخائفة في عينيّ.. وفجأة سمعنا صوتًا خفيضًا ينادي بحذر:

ـ لوصة.. لوصة..

كان صوتًا رفيعًا خلته نسائيًّا! لكنْ فجأة، برز صَبيّ نحيل من وسط الركام في الجهة المقابلة للزاوية التي ننحشر فيها.. كان يَتلَفّت بحذر، ويتقافز بخفّة فوق بقايا الطوب والأنقاض، ثم اختفى وراء بقايا جدار وأخرج رأسه الصغير..

ـ لقد ذهبوا.. تعالي.

خرجت إخلاص بصعوبة ساحبة جسدها، فانهدلت العباءة على كتفيها، ولاح شعرها الأشعث المقصوص ورقبتها الطويلة.. فسحبت طرف العباءة بقوّة، وساعدتُها في تخليصها وإعادتها فوق رأسها، ثم أشارت لي بالخروج، فخرجت وتبعتها.. نظر إليَّ الصَبيّ مندهشًا:

ـ من هذا الرجل الذي معك؟

ـ أششششش.

رَدَّت عليه إخلاص مُحتجَّة، ودفعته دفعة خفيفة.. فراح يتقافز أمامنا بين الأنقاض، وتبعناه بصعوبة.. استدارت نحوي، وقد رفعت يدها عن فمها هذه المرّة:

ـ لو رأوك معي لقتلونا نحن الاثنين.

ولج الصَبيّ دهليزًا مظلمًا، فولجنا وراءه.. ثم صعد سلّمًا متهدِّمًا حتى أصبحنا فوق أحد السطوح.. وراح يبحث عن شيء ما ونحن ننظر إليه.. غاب لبرهة عن عيوننا، ثم عاد حاملاً صفيحة كبيرة ووضعها بجانب السياج، وصعد فوقها وعبر إلى الجانب الآخر.. التفتت إخلاص نحوي بحيرة، ثم سرعان ما اعتلت الصفيحة محاولة عبور السياج، لكنَّها واجهت صعوبة مع الأسمال التي ترتديها.. فنزعت العباءة وكوَّرَتها ورمتها عبر السياج، وواصلت المحاولة بعد أن رفعت ثوبها إلى الأعلى ولاح فخذاها الصقيلان.. لم تفلح في المحاولة الأولى، فالتفتت نحوي مُستنجدة.. تردَّدت أوَّل الأمر، لكنَّني مَددت ذراعي تحت عجيزتها، ودفعت بقوّة.. فاعتلت السياج وألقت بجسدها في الجانب الآخر.. نظرت خلفي متفحِّصًا المكان ثم اعتليت الصفيحة، ورفعت رأسي من فوق السياج.. رأيت إخلاص والصَبيّ ينظران نحوي! وأشارت لي إخلاص بأن أعجِّل.. فقفزت إلى الجانب الآخر ونفضت ملابسي.. قادنا الصَبيّ إلى سلّم آخر، ونزلنا إلى باحة المنزل.. كانت ثمَّة امرأة عجوز تُقشِّر

البطاطا، ما إن رأتنا حتى هرعت لترشدنا إلى الدهليز من دون أن تنطق بكلمة.. أوقفتنا خلف الباب الذي فتحته، وراحت تتفحّص الزقاق.. وبعد برهة، أشارت لنا بالمُضيّ.. خرج الصَبيّ أوَّلاً، ولمحت من فتحة الباب بيت أمّ صبيح وبابه الذي يعتلي الدكّات الثلاث المُثَلَّمة.. كان في الجهة الأخرى مباشرة عبر الزقاق الصغير. اختفى الصَبيّ، وخرجت إخلاص خلفه قاطعة الزقاق بقفزة واحدة، وولجت بيت أمّ صبيح.. بقيت متسمّرًا في الدهليز والمرأة العجوز تنظر إليَّ بصمت، ثم سرعان ما أخرجت رأسها من الباب متفحِّصة الزقاق قبل أن تعود وتشير لي بالمُضيّ.. فخرجت بسرعة قاطعًا الزقاق بخطوة واحدة، وولجت البيت الآخر.. كانت إخلاص تقف خلف الباب مباشرة. وما إن دخلت حتى أوصدته بسرعة، وأسندته بذراع حديديَّة كبيرة.. ألقت العباءة فوق حبل غسيل قريب وعدّلت من وضع شعرها، ثم اتّجهت نحوي وراحت تنفض الغبار عن سترتي.

ـ آسفة.. لقد بهدلتك معي.

ـ لا.. أبدًا. المهمّ وصلنا سلامات.

دخلت إخلاص في إحدى الغرف، وبقيت واقفًا في الباحة.. انفتح أحد الأبواب الجانبيّة، وخرج رجل سمين بشاربين غليظين.. نظر إليَّ شزرًا وهو يحفَّني قبل أن يخرج.. ثم خرجت من الغرفة نفسها أمّ صبيح، وهي تُعدّل من وضع فوطتها على رأسها.. فوجئت بوجودي أوَّل الأمر، لكنَّها سرعان ما تذكّرتني.. فقدمت مهلِّلة:

ـ يا هلا ومرحبا أستاذ! زارتنا البركة.. لقد أطلت الغياب؟!

ـ أهلاً يا أمّ صبيح.. يا مرحبًا.. لقد انشغلت قليلاً.

ـ وكيف حالك؟.. إن شاء الله بخير؟ البنات يسألن عنك كثيرًا.

ثم التفتت صوب إحدى الغرف، ونادت:

ـ ضويَّة.. يا ضويَّة.. تعالي أنظري من أتى إلينا!!

لم تجب ضويَّة، فخطت أمّ صبيح باتّجاه غرفتها، وقرعت الباب..

ـ ضويَّة.. أينك يا فتاة؟ أستاذ علي هنا..

فتحت ضويَّة الباب، وأطلَّت برأسها وهي تنظر بلهفة بعينين نصف مغمضتين. وما إن رأتني حتى هرعت ضاحكة واحتضنتني بقوّة، وراحت تقبِّلني.. ثم قادتني لغرفتها وأغلقت الباب. وسمعت صوت أمّ صبيح تُعلِّق مستغربة:

ـ أين أخذت الرجل؟ لم نره بعد!

ـ فيما بعد يا خالة.. فيما بعد.

هتفت ضويَّة وأجلستني على السرير، وراحت تُسرّح شعرها الطويل أمام مرآة كبيرة.

ـ أخيرًا.. أتيت! تتملّكني رغبة شديدة منذ أيّام للذهاب إلى النهر.

ـ النهر؟.. في مثل هذا الوقت؟ الأوضاع خطرة للغاية!

استدارت ضويَّة نحوي، وقد جمعت شعرها الكثيف على

جانب صدرها، ولاحت في خيوط الضوء المتسرِّبة من الشبّاك امرأة مشتعلة، زادها سحرًا انحسار ثوبها القطني عن أعلى صدرها.. بقيت أتأمّلها بدهشة، كما لو أنّني أكتشفها لأوّل مرَّة! كيف يمكن لطفلة مثلها أن تكتسب كلّ هذه الأنوثة دفعة واحدة!؟ صحوت على يدها الناعمة تربّت على خدِّي برفق، وأنفاسها تلسع وجهي وعطرها يداهمني.

ـ اصح يا عيني!! ماذا دهاك؟

عدت لوعيي كما لو كنت مُغَيَّبًا أو مغمًى عليَّ، ليطالعني وجهها الحسن قريبًا جدًّا هذه المرَّة.. سمرتها المدافة بنور الشمس، ورموشها الطويلة المغرقة بالكحل، وشفتاها المنفرجتان تتوعدّان شفتيَّ، ثم أحسست بلسانها الرشيق يتقلَّب فوق لساني بحذاقة، وكانت الشمس المتسلِّلة تتجمّع في بؤرة صغيرة على سطح المرآة لتنعكس بألوان الطيف فوق ظهرها المحفور مثل نهر، وفوق كتفيها المقوّسيْن.. ومن بعيد.. بعيد جدًّا، تناهى إلى سمعي صوت انفجار مكتوم، تلته رشقات طويلة من إطلاق نار كثيف، لكنّ الشمس ما تزال تغرز أطيافها فوق الجسد السابح في نصف العتمة اللذيذة.

استلقت ضويَّة على ظهرها، وألقت ذراعها فوق جبينها المعروق، بينما بقيت مستلقيًا دون حراك.. أحدّق في السقف ذي الأعمدة الخشبيّة العتيقة وحصران القصب. حرَّكت ضويَّة جذعها، وأسندت رأسها إلى كوعها وهي تتطلَّع إليَّ. استدرت نحوها ببطء كما لو كنت مخدّرًا، كانت ملامح الجدّيّة تعتلي وجهها المورَّد. سحبت الغطاء بيدها الطليقة فوق نصفي الأسفل.

ـ ماذا هناك؟

ـ لا شيء..

أجابت من دون مبالاة، وملامح الجدّيّة ما تزال مرتسمة على وجهها.. ثم على حين غرَّة، أطلقت ضحكة صادحة ظَلّت تتردَّد أصداؤها في الغرفة. تساءلت مندهشًا:

ـ ما بك؟

قالت، والضحك يغالبها:

ـ ماذا فعلت؟

ـ ماذا؟!

ـ لا شيء..

عادت للاستلقاء ثانية، وراحت تتطلَّع في سقف الغرفة، نهضت وارتديت ملابسي على عجالة، ونظرت في المرآة.. كانت غرّتي منفوشة وعيناي غائرتين في محجريهما.

ـ لو سمحت.. أعطني سيكارة.

بحثت عن علبة السكائر فوق المنضدة، ولمحت كتاب تفسير الأحلام تحت علبة المحارم.

جلست ضويَّة تدخِّن سيكارتها بتلذّذ، وهي عارية تمامًا وغير مبالية، كما لو كنت غير موجود.

تصفّحت الكتاب بدهشة، وتأكّدت من أنَّه هو الكتاب نفسه الذي اشتريته لها. فردته أمامها متسائلاً:

ـ من أحضره إليك؟

ـ مجر..

رَدَّت من دون مبالاة، وهي تنفث الدخان في فضاء الغرفة، قبل أن تردف:

ـ سأل عنك كثيرًا.

ـ من؟

ـ مجر.. قال إنَّه لَمَحك تجوب في الجوار ذات ظهيرة.

عدت لتصفيف شعري أمام المرآة، وفوجئت بضويَّة تحتضنني بقوَّة من الخلف، وتضغط صدرها فوق ظهري.

ـ لم أدرك أنَّك لذيذ إلى هذا الحدّ.

أفلتُّ ذراعيها واستدرت في مواجهتها، كانت تبتسم بمكر يخالطه الانتشاء أو التشفِّي.

ـ اسمعي يا عزيزتي.. ما حدث لم يكن مخطَّطًا له.. لقد...

وضعت سبّابتها الصغيرة فوق شفتيّ لتسكتني:

ـ أعرف ذلك.. ما حدث حدث ولا داع لتبريره. لقد أغويتك.

ـ نعم.. ولكنْ، لا أريد للآخرين أن يعرفوا.

ـ تقصد هند؟.. طبعًا، سأحكي للجميع عن فحولتك.. ثم ضحكت، وهي ترتدي بدلتها الرياضيّة من جديد، فأمسكت بذراعها وجذبتها نحوي، وأمسكت حنكها برفق:

ـ لا، أنا جادّ هذه المرَّة.. أرجوك.

ـ حسنًا.. فهمت. لا تقلق يا عزيزي.. أنت تريد أن تحافظ على مظهرك البتول!

ـ لست مداهنًا، وما حصل حصل رغمًا عنِّي وأنت تعرفين ذلك.. ولا أدّعي بأنَّني بتول.. كلّ ما هناك أردت الاستمرار في احترامكنّ.

شبكت ذراعيها خلف رقبتي، وجذبتني إليها برفق:

ـ أعرف ذلك، صدّقني. وأنا أحترمك كثيرًا.. أنت أوَّل رجل يحترمني ويهتمّ بي، ولن أخذلك. تأكَّد من ذلك.. شرط أن تعدني.

ـ بماذا؟

ـ باصطحابي إلى النهر.

ـ لكنَّها فكرة مجنونة!

ـ أعرف ذلك.. لكنَّها رغبتي الأخيرة، ولن أطلب منك شيئًا بعد ذلك.

طرق الباب فجأة، فجفلت. وبحركة سريعة، عدّلت من وضع ملابسي وجلست على حافّة السرير.

ـ ضويَّة.. هل ما زال أستاذ علي عندك؟!

تساءل الصوت المتهدِّج في الخارج كما لو كان همسًا بصوت عال.. لم يكن صوت أمّ صبيح هذه المرَّة، فتحت ضويَّة الباب بحذر، وكلّمتها من فتحة صغيرة، ولمحت جانبًا من وجه إخلاص وغرّتها المجعّدة:

ـ أمّ صبيح تقول لا تدعوا أستاذ علي يخرج، لأنّ جماعة مُلّا جليل قطعوا الأزقّة، واحتمال حدوث مواجهات اليوم..

نظرت ضويَّة إليَّ بحيرة، بعد أن أغلقت الباب، فنهضت كالملسوع:

ـ ما زال ثمَّة وقت.. سأصل الشارع العام قبل المواجهات.

ـ ماذا تقول يا عزيزي؟.. الله يهديك. قل شيئًا غير هذا.. الوضع خطر جدًّا.

خرجتُ إلى الباحة، وما زالت ضويَّة تتشبّث بي متوسِّلة، لكنَّني تخلَّصت منها برفق وفتحت الباب الخارجي.. كان الزقاق هادئًا، وليس ثمَّة حركة، لكنَّني حالما انعطفت في الزقاق الجانبيّ فُتحت النار عليَّ من مكان ما، كانت صَلية كلاشنكوف طويلة طرَّزَت الجدار ذا الشناشيل، وتناثرت شظايا الحجارة فوق رأسي. اختبأت خلف كومة من الأنقاض، ولمحت الزقاق الصغير الذي خرجت منه، ما زالت بضع خطوات تفصلني عنه! فكّرت، يمكنني قطعها بخطوتين أو ثلاث.. وسأكون في بيت أمّ صبيح ثانية. ما إن رفعت جسدي من كوم الأنقاض حتى دوّى انفجار قاذفة محمولة، وانهار الجدار المُحَدَّب خلفي، وتكوَّمَت بقايا الشناشيل الخشبيّة فوقي، وخبط رأسي عمود كبير من تلك التي تسند السقف.. فغامت الرؤية في عينيَّ ووهنت قوّتي، وسقطت عند أعتاب الباب ذي الدكّات الثلاث.

* * *

كنت محمومًا وجبيني يتَفَصَّد عرقًا ونظري مُشَوَّشًا، وكانت دائرة الوجوه التي تحيط بي تدور من حولي.. وعبثًا، حاولت استعادة نظري المُشَوَّش، أغمضت عينيَّ بقوّة وفتحتهما، فاتّضحت الرؤية قليلاً.. هند وضويَّة وإخلاص ووجوه أخرى لا أعرفها تتحلَّق من حولي. ومن خلفها، لمحت وجه أمّ صبيح ووجه صديقي محمود، وفي الخلف قرب الباب لمحت وجه مجر بابتسامته الغامضة.

نقعت هند خرقة صغيرة في ماء بارد ثم عصرتها وأفردتها فوق جبيني، وشعرت بارتياح غامض. كان جسدي مشلولاً وعاجزًا عن الحركة، فقط عيناي تتطلّعان بنظرات غائمة. رفعت إحداهنّ رأسي ووضعت وسادة تحته. كانت هند تجثو على ركبتيها أمام السرير، بينما جلست ضويَّة قرب قدميَّ.. سمعت أمّ صبيح تطلب منهنّ الابتعاد عنِّي، وأمرت إخلاص بعمل نقيع

البابونج. مَدَّت هند رقبتها باتّجاهي، ومسحت وجهي المعروق بكفّها المفعمة برائحة العطر والسكائر.

ـ أستاذ علي.. أتسمعني؟

نظرت في عينيها الصغيرتين ذات الرموش المتهدِّلة، وحاولت رسم ابتسامة بليدة:

ـ الحمد لله على السلامة.

أجلت نظري في أرجاء الغرفة، وحاولت تذكّر الأحداث السابقة، لكنَّني كنت متهالكًا ومتعبًا جدًّا.. وقبل أن يطوّح النعاس بي، لمحت في نصف العتمة خارطة العالم الكبيرة المُعلَّقة على الجدار.

شيئًا فشيئًا، استعدت وعيي المائع. وأوَّل شيء تبادر إلى ذهني هو مغادرة المنزل بسرعة، فنهضت محاولاً التوجّه نحو الباب، إلَّا أنّ الدوخة طوَّحت برأسي وكدت أقع، فعدت للجلوس على حافَّة السرير ونفضت رأسي بقوّة. هرعت هند نحوي:

ـ ماذا تفعل؟ يجب أن ترتاح قليلاً.. ما زلت دائخًا.

ـ يجب أن أغادر قبل اشتداد المواجهات في الخارج.

ـ إلى أين تغادر؟.. هل جننت؟ ألا تسمع إطلاق النار في الخارج.. جماعة مُلّا جليل أحرقوا الدنيا الآن!

ـ وأنتم؟.. أليس ثمَّة خطر عليكم؟

ـ نحن؟ لا.. لا تقلق.. أمّ صبيح تدفع دائمًا لجماعة مُلّا جليل.. وأحيانًا ترغم الفتيات على استقبال رجاله.

ـ لكن من مُلّا جليل هذا؟.. ومن يحارب؟ وماذا يريد؟

ـ لا أدري! صدّقني.. ثمَّة مجاميع مسلَّحة كثيرة تتصارع على مناطق النفوذ هنا.

ـ والأميركان؟

ـ ما بهم؟..

ـ هل يأتون إلى هنا؟

ـ لا أدري.. ربّما.. لا أظنّهم يتورّطون بالدخول إلى هذه الأزقَّة الضيِّقة! ربّما في الشارع الرئيس..

تصاعد إطلاق النار والانفجارات المتتالية في الخارج، وشعرت أنّنا في ساحة حرب حقيقيّة، لكنَّ هند كانت هادئة كما لو كانت قد اعتادت مثل هذه الأجواء، وما فتأت تداعبني من حين لآخر.

ـ ما بك؟.. لم أعرف أنّ قلبك ضعيف إلى هذا الحدّ!

ـ لست خائفًا.. لكنَّني مُتَحَيِّر وحسب.

ـ لا تصدع رأسك.. كلّ مرَّة هكذا. سرعان ما سيملّون وينسحبون إلى جحورهم.

ـ قلت إنّ أمّ صبيح تدفع لجماعة مُلّا جليل.. أليس كذلك؟

ـ نعم!

ـ ليحموكم؟

ـ لا.. قل ليتجاهلونا ويتركونا بحالنا.

ـ حسنًا.. وماذا بشأن الآخرين؟

ـ مَن الآخرون؟

ـ أقصد الجماعات التي يحاربها مُلّا جليل وجماعته..

ـ لا أعرف شيئًا عنهم.. منذ أشهر طويلة: مُلّا جليل وجماعته هم من يسيطر على هذه المنطقة، وقد أنذرونا في حال خروج إحدانا إلى الزقاق سيطلقون النار عليها.. هل أُضحكك؟ مرَّة، قَدِم شيخ ملتحٍ من جماعتهم إلى المنزل.. أحضره جماعته، فخيَّرَته أمّ صبيح بين الفتيات اللواتي وقفن صفًّا أمامه، وكنت أختبئ في غرفتي.. وبعد تَمَعُّن وتَفَحُّص اختار إخلاص.. لوصة! أنت تعرفها.. أليس كذلك؟ إنَّها الفتاة التي أحضرتك اليوم إلى هنا.. فدخل معها في غرفتها. وعندما خلعت ملابسها، نهرها وطلب منها أن تحتشم.. تقول لوصة.. فاحتشمت مندهشة.. ثم اقترب منِّي وقال: أريد جماعًا شرعيًّا.. سألته لوصة.. يعني كيف شيخنا؟.. تقول: فجلس على الأرض، وطلب منِّي أن أجلس أمامه، وقال رَدّدي ورائي.. وصار يقول.. زوَّجتك نفسي أنا العاقلة البالغة.. ثم قطع حديثه وسألها.. ما اسمك.. فأجابته اسمي لوصة! قال أستغفر الله العظيم.. لوصة بنت من؟ فخافت البنت، وأعطته أوَّل اسم خطر ببالها.. قالت لوصة بنت مجر.. فقال: حسنًا، رَدِّدي ورائي.. زوَّجتك نفسي أنا العاقلة الراشدة لوصة بنت مجر على مهر مُعجَّل قدره دينار واحد ومهر مؤخّر قدره عشرة دنانير.. فردَّدت وراءه.. قال: الآن أصبحتِ حلالي. هيّا اخلعي ثيابك.. فخلعت ثيابها.. أمّا هو، فاكتفى برفع جلبابه إلى الأعلى ونام فوقها.. تقول لوصة.. ما إن لامس عضوه فخذَها حتى أطلق شخيرًا طويلاً ونهض معيدًا جلبابه..

وقبل أن يخرج، قال لها أنت طالق بالثلاثة يا لوصة بنت مجر، وخرج.. فنادت وراءه الملعونة: والمؤخّر يا شيخ؟

كانت هند تقصّ الحكاية مغالبة الضحك، وكنت أضحك لضحكها الطفولي وليس للحكاية المُرّة.

هدأ إطلاق النار في الخارج وتباعدت الانفجارات، وهدّأت هند قليلاً من صخبها، وراحت تدخّن وتتطلّع نحوي:

ـ تعرف؟.. كتاب «طوق الحمامة» يجنّن!

ـ حقًّا؟.. هل قرأته؟

ـ ليس كلّه.. قرأت فصلاً واحدًا منه حتى الآن، ولكنّه ساحر.

ـ لكن كيف وصل إليك؟

ـ ألم ترسله بيد مجر؟

ـ هل رأيت مجر هذا؟.. أقصد هل هو حقيقي؟

اقتربت هند منّي، ووضعت يدها على جبيني ساخرة.

ـ ما بك يا حبيبي؟ هل ما زلت محمومًا؟

ـ لا.. لا.. أقصد هو غريب الأطوار قليلاً.

ـ أطوار بهجت.. وضحكت ضحكة طفوليّة ملؤها الغنج.

ـ أنا جادّ.

ـ وأنا جادّة.. ثم أردفت:

ـ أقصد لست رصيفًا.. وعادت تُطلق ضحكاتها الرَنّانة من جديد.

ـ حسنًا.. إذا استمررت في تلك السخافات، سأغادر.. ونهضت! فأمسكت بذراعي وأجلستني من جديد.

ـ اهدأ يا حبيبي.. ما بك؟.. أنا أمزح معك.

ـ وهل تحبِّينني حقًّا؟

هدأت فجأة، وتطلّعت نحوي بذهول.. ثم قرَّبت فمها من أذني، وهمست بجدِّيّة:

ـ لن أسمح لك بتعكير مزاجي.. اليوم أنا منتشية ومرتاحة! بالمناسبة.. لم تحدّثني عن نواياك هذه المرَّة.. ها؟.. لِمَ لا تحدّثني عنها؟.. ها؟.. ألم تعدني في المرَّة السابقة؟

ـ لقد صدقت بما وعدتك حتى الآن.

ـ وما ذاك؟

ـ وعدتك بإحضار الكتب التي طلبتها وأحضرتها، ووعدتك بالمجيء وأتيت.. وها أنا هنا محاصر في المنزل، ولا أستطيع المغادرة بسبب حرب المُلّا جليل في الخارج..

ـ هل أنت نادم إذن كونك أتيت؟

ـ لا، بالتأكيد.. لكن لم أشأ التعلّق بك.

ـ لِمَ؟.. هل لأنَّني...

ـ لا.. لا.. أرجوك.. أنت تعرفين ما أقصد.. كما إنَّني أودّ الفتيات جميعهنّ وأحاول مساعدتهنّ.

ـ صحيح.. وماذا في الأمر.. فأنت قلبك كبير ويحبّ البنات كُلّهنّ.. ليس ثمَّة مشكلة.. ثم نهضت وأخرجت سيكارة

جديدة وأشعلتها بعصبيّة، فنهضت وجذبتها نحوي برفق ونظرت في عينيها لبرهة، وظَلّت مُحدِّقة هي الأخرى حتى انفجرت بالضحك من جديد، وضحكت معها..

ـ كم أنت كريه.. لا أعرف حتى كيف أغضب منك؟

توقّف إطلاق النار تمامًا في الخارج، وانتشر الظلام في الباحة، وتناهت لنا أصوات آنيّة في الأسفل.. وصوت أمّ صبيح يحثُّ الفتيات على الانتهاء من إعداد العشاء، وأخرجت هند فوطة كبيرة من خزانتها مع صابونة مُعطَّرة، وذهبت لتستحمّ في الحمّام المجاور، بعد أن أضاءت مصباحًا صغيرًا ووضعته فوق الخزانة ليضيء الغرفة، لأنّ التيّار الكهربائيّ غالبًا ما ينقطع عن تلك المناطق! وجلست مفكّرًا فيما إنا فيه، وكيف وصلت إلى هذا المنزل وكيف سأقضي الليل هنا.. ودفعني الفضول للتطفّل على أشياء هند الموضوعة فوق الطاولة الصغيرة.. أوراق نقديّة من فئة الخمسة وعشرين ألف دينار مدعوكة، وأساور ذهبيَّة وسلسلة فضِّيّة، ومفاتيح وهاتف نقّال قديم، ومجموعة من الصور موضوعة في أحد الكتب.. صور قديمة، بعضها بالأبيض والأسود، وبعضها الآخر ملوّن.. لهند وهي ترتدي الزيّ الجامعي، وأخرى لها تقف بجانب سيَّارة حديثة كما لو كانت تهمّ بقيادتها، وأخرى قديمة لها عندما كانت في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر بجديلة طويلة ومريلة مخطَّطة.. وصور أخرى لأناس لا أعرفهم.. ربّما أهلها أو أخواتها.. أمّها وأبيها ربّما.. صورة أخرى لها تحتضن طفلاً صغيرًا.. ربّما طفلة في الثالثة أو الرابعة من العمر.. صور أخرى كثيرة لها وهي تستلقي على العشب، أو

تحمل وردة تداعب بها شفتيها.. وهنا صورة أخرى لها مع تلك الطفلة.. تبدو أكبر قليلاً في هذه الصورة، وبدت هند تعلّقها من ذراعيها أمام أرجوحة منزليّة.. لكن من بين جميع الصور ثمَّة واحدة حيَّرَتني بدت فيها هند بالملابس العسكريّة المُرَقَّطة وهي تقف مع مجموعة من الجنود والمجنّدات الأجانب، وتظهر خلفهم مُدَرّعة سوداء، بدت كواحدة منهم ببشرتها الحليبيّة، وقَصّة شعرها القصير الذي لَمَّته بنظّارة شمسيّة فوق رأسها.

دخلت هند فجأة ورائحة الصابون المُعطَّر تفوح من جسدها، وجلست أمام المرآة لتجفِّف شعرها.

ـ اكتشفت الصور إذن؟

ـ لم أكن أقصد التطفُّل.. كنت أتصفّح الكتب، ووجدت..

فقاطعتني من دون مبالاة:

ـ لا يهمّ.. كنت سأدعك تشاهدها أوّلاً وأخيرًا.. أكيد أثارت لديك الكثير من الأسئلة.

ـ في الواقع، نعم.. فهي كثيرة وغامضة ومُحيِّرة وما زلت غير راغبة بإخباري قِصَّتك.

كانت ترتدي فستانًا قطنيًّا أسود يبرز مفاتن جسدها المشدود، بينما بدا وجهها الأبيض ووجنتاها المورّدتان كأبهى ما يكونان من دون مساحيق، واكتفت بتجفيف شعرها بالمنشفة فقط ليكتسي تجعّدات كبيرة زادتها سحرًا، ثم نهضت وفتحت الخزانة، وأخرجت عطرًا صغيرًا رَشّت منه قليلاً تحت أذنيها وصدرها، كان عطرًا ذا مسحة شرقيّة آسرة سرعان ما انتشر في الغرفة وطوَّحَ

برأسي، قبل أن تقترب منّي وتقبّلني بطريقة لم أختبرها من قبل.

ما إن استعدت وعيي بعد القُبلة الطويلة حتى قالت هند ضاحكة:

ـ الآن.. امتزجت روحك الهائمة بروحي المحترقة يا صديقي.. ما الذي ورَّطَك معي؟

كان لسان حالها يقول، ما الذي أتى بك إلى غابتي وغوايتي؟.. تمتَّع الآن باشتعالك. ابتكر سقوطك وشغفك وأنت تجثو عند قدميَّ. لكنَّني مع ذلك، لن أدعك تهوي وحدك، سأنتشلك وأحلِّق بك في سمائي وأنا أخفق بأجنحتي الجبّارة.. حتى ترى ما لم تره من قبل!

لا أدري، في الحقيقة، كيف حدث ذلك؟

كيف أطبقت شفتيها على شفتيَّ؟

كيف انسلبت روحي وكيف انفجرت شمسها الباهرة وسط أضلاعي؟

ما حصل لم يكن مجرّد قُبلة، ما زلت أذكر حتى الآن كيف أغلقت هند الباب ذا الظلفتين، كيف جعلت فستانها الأسود ينزلق ببطء عن كتفيها ليعلق قليلاً عند منحنى الخاصرة، قبل أن يواصل انزلاقه الباهر عن ردفيها الصقيلين، كيف أضاءت الشمعة الناحلة وكيف أشعلت سيكارتها منها، كيف بدت ملامحها الناريَّة في تلك اللحظة التي هَممت بها بالهرب، قبل أن تضع شفتيها فوق شفتيَّ بفم مفتوح! تلك اللحظة بالتحديد، حين امتدّ لسانها الطويل متقلّبًا مثل أفعى ساحرة في فمي، حتى شعرت بخدر يسري بجسدي.

اعتقدت أوَّل الأمر أنّ تلك القُبلة ستكون كسابقاتها، حين تمتصّ نَفَسًا عميقًا من دخان سيكارتها، وتضع فمها فوق فمي لنتبادل الدخان، هي تمتّصه وأنا أطلقه في فضاء الغرفة نصف المعتمة، لكنَّ سيكارتها ظَلّت تستعرّ في المنفضة ببطء حتى تحوَّل نصفها إلى رماد، تُهمْهِمُ بين الحين والآخر، ويومض جمرها الآفل بغموض، بينما سَلبت القُبلة روحي وأشعلتها.

ما إن ابتعدت عنِّي حتى تحسَّسَت شفتيَّ اللتين تغيّرتا وأصبحتا مجمرّتين، وكانت هند تتّكئ على كوعها، وتنتظر رَدّة فعلي بلؤم:

ـ سلامات..

همست بخبث وهي تبعد غرّتها عن حاجبها الطويل، بينما كانت السماء في الخارج تمطر قذائف ورصاص..

ـ لا.. لن تمرّ سلامات.

أسندت رأسها إلى كوعها فتدفّق الدم إلى وجنتيها المطهَّمتين بعافية الشبع، وأضاء وجهها، وارتسمت التجعيدتان الآسرتان على جانبي فمها، وهي تبتسم بصمت وتنظر إليَّ.

ـ هل شعرت بشيء ما؟

ـ نعم.

ـ ماذا؟

ـ شيء ما.. بعيد جدًّا في أعماقي يحترق الآن.. أعتقد أنّنا نرتكب حماقة ما أو نجترح معجزة ما.

ـ بسبب الجنس؟

ـ لا.. يستطيع أيّ أحمق ممارسة الجنس.. لكن قوّة جامحة تتحكَّم بي.

ـ دعها.. استسلم لها وسلّمها روحك.. لا تخف.

ـ من هي؟

ـ تلك القوّة التي تتحدَّث عنها.. لا تحاول السيطرة عليها، لأنّها ستُدمّرك.

ـ لكنّها موجعة جدًّا يا عزيزتي.

ـ أعرف ذلك.. إذا ما حاولت سجنها، ستستعبدك!

ـ نعم.. لكنّني أريد أن أفهم فقط.

ـ لا تحاول.. أنصحك.. ستهيم روحك في عالم الضياع إذا ما حاولت أن تفهم.

كانت تضع يدها التي تحمل السيكارة على حنكي، وتداعب شفتيَّ بإبهامها، بينما تحوّل نهدها إلى كرة طريّة من النار تحت أضلعي.

كنت أنظر في سقف الغرفة، حيث أسلاك الكهرباء المخلوعة من مكانها، عندما دبّ الخدر في جسدي وطوّح النعاس برأسي، وأنا أتنفّس أشياءها.. رائحة جلدها التي لا تشبه أيّة رائحة.. عطرها المخلوط برائحة عرقها المنبجس فوق شفتها العليا، حيث «خال» صغير جدًّا لم أكتشفه إلَّا مؤخّرًا، وبقايا رائحة الصابون عند منابت شعرها وفوق الوسادة..

كانت تلك الأشياء الصغيرة جميعها تتآمر على وعيي، وتدوف انتباهي بدخان مُعطّر حتى أطاحت به، ونمتُ نومًا

عميقًا.. عميقًا جدًّا في الواقع، لدرجة لم أكن أحلم معها عندما انهارت الجدران وطار السقف وأغرقت الشمس الغرفة.. كانت العصافير التي تبطّن شجرة السدر القريبة تثير عاصفة من الزقزقة المتواصلة، كعادتها عندما يتسلّق قطّ ما تلك الشجرة.. تضرب بأجنحتها الصغيرة، وتطلق زقزقتها بقوّة، حتى تسقطه مُدافًا برماد الكانون المنطفئ عند أقدام الجذع الكبير.. ليس ثمّة جدران متبقّية لأحتمي من الرصاص المارق بحنق من حولي مثل زنابير ناريَّة.. كنت جاثيًا ومستسلمًا أُفكِّر في الاختباء تحت سرير قديم، عندما شعرت بقبضتيْ هند تطبقان على كتفيَّ من الخلف، وتجرّاني بقوّة.. حاولت الالتفات لرؤية وجهها، لكنَّ بصري خبا من فرط الوهج. كانت بيضاء بأجنحة جبّارة، راحت تخبط بهما الهواء المشتعل من حولنا حتى شعرت بأنّنا نحلّق في الفضاء.. وشيئًا فشيئًا، بدأنا نرتفع فوق الخرائب، ولاح مبنى الخان الكبير تحتنا مُخضرًّا في ضوء المساء. كانت أسراب الرصاص تلاحقنا في مسارات ضوئيّة.. تدخل في صدري وتخرج من ظهر هند.. لم أشعر بلسعة أو ألم. مجرّد ثقوب صغيرة تصفر فيها الريح الباردة.. وبدت المدينة مفترشة تحتنا الآن. لا صخب فيها ولا نحيب.. لم نعد نسمع شيئًا، ونحن نهيم في الفضاء. لكنّ الشيء الذي كنت متأكّدًا منه هو أنّ هند، في تلك اللحظة تحديدًا، بدت بيضاء بأجنحة جبّارة، وهي تحملني وتطوف بيّ في السماوات الباردة.

شعرت بيدها الصغيرة تربّت على خدِّي، وما إن فتحت عينيَّ حتى لمحت مجر يجلس فوق الخزانة.. يضع رجلاً على رجل

ويدخِّن! وضويّة تحتبئ تحت طاولة صغيرة، بينما ظهر نصف جسد لوصة من الجدار.

ـ من هي تلك البيضاء بأجنحة جبّارة يا عزيزي؟

ـ لا أدري.. ما الذي يفعله مجر فوق الخزانة؟

التفتت هند صوب الخزانة، ثم عادت واحتضنتني بقوّة.

ـ اهدأ يا حبيبي.. اهدأ.. لا تخف. ربّما هي الحُمّى.

ـ أيّة حُمّى؟.. هل سأموت؟

ـ لا.. لا.. لكنَّك تتغيَّر.. ألم أقل لك.. ما لك؟.. لا تخف!

* * *

لا شيء مثل خرائب الحيدرخانة في الظهيرات.. أنتظر بفارغ الصبر طلوع الصباح، لأدخل ظلالها السود، وأهيم وسط أضلاعها المُمزَّقة بفعل القنابل والزمان.. كلّ آجرّة فيها تذكّرني بروحك الطافية بغموض مع الفواخت الرماديّة. لا أستطيع الانتظار.. سأذهب إلى هناك. وإن لم أجدك، سأختار أوّل ظلفة باب قديمة ملقاة بإهمال وسط الأنقاض.. أتمدّد بجانبها بهدوء وأحضنها. أقبّل أخشابها المشقّقة، وأشمّ رائحتها الرطبة، وأتخيَّلك حين تميد رقبتك تحت وابل قبلاتي.. على فمك.. على عينيك.. على صدرك.. قبلاتي في كلّ مكان من جسدك.. أشعر أنّني أعرفك منذ أزمنة سحيقة.. منذ أن أدركت أنّ القلوب تتشظّى والحياة سوف تحترق.

ـ ماذا ترى الآن؟

في هذه اللحظة؟.. أرى الناس يدخلون بوّابتك بقلوب كليمة وأحلام مُمزَّقة.. متوتِّرون وأرواحهم خاوية، فتوقدين فيهم شعلة

لم يعرفوا أنَّها كانت موجودة داخلهم!

عندما أتأمّل جسدك الصغير يتنقّل في حَيِّز الغرفة، أُدرك سرّ الطاقة العظيمة الكامنة فيك.. ابتسامة عابرة من فمك تجعل عقلي المُعذّب يطمئنّ!

ـ حدّثيني عن عصافير مرجان.. هل حقًّا كان يأكلها؟ يوقد مشواته في الليل ويَصُفّها في السيخ ويشويها؟

ـ من أخبرك بقِصَّة العصافير تلك؟

ـ لا أتذكّر.. أحد ما أخبرني بذلك.. لوصة ربّما!

ـ يكمن مرجان في غرفة الفايبر المشويّة تحت لهيب الشمس في العلِّيّة.. يتخفّى تحت بساط قديم بعد أن يفتح نافذة واحدة وينثر الحبوب على الأرضيّة.. فتأتي العصافير الجائعة، وتقف متردّدة على الحافّة.. لكنَّ غريزة الجوع تنتصر في النهاية، فتحطّ على الأرضيّة وتنقر الحَبّ، بينما ينتظر مرجان تحت البساط حتى تمتلئ الحجرة بالعصافير، ثم يسقط عصا الظلفة، ويغلق النافذة.. تطير العصافير خائفة وترتطم بالجدران الخشبيَّة، وحين تتعب تحطّ مستسلمة لائذة في الزوايا، فيخرج مرجان من مخبأه، ويلتقطها الواحد تلو الآخر ويضعها في الأقفاص..

ـ لهذا يطير؟.. نبتت له أجنحة وصار يُحلّق في الأنحاء.

تنظر إليَّ هند وتضحك بطريقة مُعذِّبة! يا إلٰهي.. كم أحببت أن أقبّل فمها حين تبتسم!

ـ يا مجنون.. من أخبرك بتلك القِصَّة المضحكة؟.. هل تصدّق؟

لم أعبأ بتعليقها.. في الواقع، لم أعبأ بما يروى من حكايا في هذا البيت الضاجّ بالرؤى والأحلام المنفلتة، وكلّ ما هَمّني هو هند.. هند بروحها الفائرة، وجسدها الخفيف مثل نسمة عطر مُسكرة.. هند التي صارت تسكن أضلاعي، وتعبئ روحي بحضورها.. هند المتفتِّحة كنوزها في الليالي، حيث تصحبني بجولاتها الغامضة وتريني الأرواح الهائمة..

ـ الليل كلّه لنا يا عزيزي.. الليل العميق وحده كفيل بانعتاق الأرواح من محبس الجسد الذي يضيق عليها.. الليل حيث تشعر بالحرِّيَّة تحفّ جوانحك، وتحملك على محفّات من الأحلام..

ـ وأنتِ؟..

ـ أنا مجرّد حلم من تلك الأحلام المنفلتة يا عيني.. ماذا تظنّ؟

ـ لا أتخيّل فقدانك في يوم ما.. هل سأفقدك؟ أنت تقرأين المستقبل.. قولي لي.. هل ستتحطَّم روحي ذات يوم؟

ـ اسمع.. انتصر لأحلامك وحسب.. لا تدعني أقف في طريقك. لا تعر أدنى اهتمام لغوايتي. أوقد شموعك واستحضر أشباحك واجعلها ترقص لك وحدك. أشعر بالحقيقة في عظامك.. جنونك الآسر هذا، لا تدعهم يحطِّموه.. أعطه مداه. لا تشحّ عليه. إنَّه شغفك وأنت أعلم به.. فاجلس وتنفَّس بعمق، ودعني في هذه اللحظة أتأمّل قلقك الطفل ونظراتك المغرقة في الرغبة.

* * *

رُفع أذان ما من أحد المنائر القريبة، وحلَّق سرب فواخت فوق فضاء الخان المُهَدَّم. كان بعض صداع يطوف برأسي، ورحت أراقب منظر الشفق من خلف الأبنية المُهَدَّمة وقامات النخلات المنفردة، وخَفَّت أصوات الإطلاقات الناريَّة وتباعدت. وفي زاوية من السطح، لمحت مجر منشغلاً بإشعال النّار في منقلة صدئة.

ـ كيف أصبحت؟

تساءل مجر من دون أن يلتفت نحوي.

ـ أحسن..

ـ البنات قلقن عليك كثيرًا.

ـ أين هنّ الآن؟

التفت مجر نحوي، ولاحت ابتسامته الغريبة ولحيته المشتعلة

في ضوء الكانون المتراقص.

ـ موجودات.. لا تقلق.. هل ما زلت مصرًّا على النزول إلى الخان؟

ـ أيّ خان؟!..

ـ خان الشابندر.. حيث أعمل.. ما بك؟

حاولت من جديد تذكّر الأحداث السابقة من دون جدوى، بينما وقف مجر في الجهة الثانية خلف الكانون، وراح يلفّ سيكارة. كان منظره في ضوء النار المتصاعدة يُذكّرني بقصص القراصنة.. عصابته الحمراء المُرَقَّطة، وشعره المنفلت من تحتها عنوة، والتجعيدتان اللتان جعلتاه مبتسمًا طول الوقت.

مرَّرَ مجر لسانه على طرف ورقة البافرا، وبصق بقايا التبغ التي علقت به بعيدًا..

ـ لقد ألححت كثيرًا من أجل النزول إلى الخان.. هل ما زلت عند رغبتك؟

أجفلني خفق أجنحة كبيرة في جوف المنزل الذي بدا مُظلِمًا في تلك اللحظة، ونظر مجر إلى الأعلى كما لو كان يلاحق طائرًا ما.

شعرتُ بآلام حادّة تعتري جسمي كُلّه، وبصعوبة اعتدلت في جلستي على كرسي الجريد المتهالك..

ـ كم الساعة الآن يا عمّ مجر؟

ـ حوالى الخامسة والنصف فجرًا.. أجابني وهو يتابع ذلك الطائر الكبير الذي لا أراه، ثم أردف:

ـ لم تقل لي.. هل ستنزل معي إلى الخان؟.. يتوجَّب عليّ فتح الأبواب قبل وصول التُجّار.

كان سياج السطح مُهَدَّمًا من الجهة التي تطلّ على خان الشابندر، وما تزال العتمة منتشرة في أروقته الراقدة تحت الأطواق الآجريّة المُقَوَّسة، فتطلَّعت بخوف إلى تلك الأجواف:

ـ امْضِ مع مجر.. ستستمتع برفقته. لا تخف.

كان صوتًا رقيقًا يشبه صوت هند انبثق فجأة من مكان ما.. تلفّتُّ بقلق باحثًا عن مصدره، بينما اكتفى مجر بالتطلُّع إليّ من دون مبالاة:

ـ هند مرَّة أخرى؟..

سأل مجر.

ـ نعم.. خُيِّل إليَّ أنّني سمعت صوتها من مكان ما!

ـ ماذا قالت؟

ـ تحثّني على النزول معك إلى الخان!

ـ هيّا إذن.. ماذا تنتظر؟ لم يبق لنا الكثير من الوقت!

نهضت بصعوبة، فانبثق ألم حادّ في ظهري وعضلات فخذيَّ، لكنَّني تحاملت واقتربت من حافّة السياج المُهَدَّم، وحين التفتُّ خلفي، لم أجد أثرًا لمجر، فاعترتني الدهشة، وصرت أبحث عنه في أرجاء السطح.. بينما بدت النار التي أشعلها تخبو. وفجأة، من عمق الخان الغاطس في العتمة المُتبدِّدة، لمحته من بعيد يشير لي بالنزول.

كان السطح عاليًا بعض الشيء، والجدران التي نما فوقها العشب زلقة بسبب الندى، وواجهت صعوبة في تثبيت قدميَّ ووجدت نفسي عالقًا في المنتصف، لكن خفق الأجنحة الكبيرة ظَلّ متواصلاً فوق رأسي.

ـ هَيّا يا حبيبي.. انزل.. لقد طلع النهار.

مرَّة أخرى، انبثق صوت هند من مكان ما.. نديًّا وعذبًا وحنونًا، وما إن رفعت نظري إلى الأعلى حيث خفق الأجنحة، حتى هويت إلى الأسفل مثيرًا هالة كبيرة من الريش من حولي، ولاحت لي أيقونات كبيرة ورفوف أساور وتيجان من الفِضَّة تلمع عيونها في نصف العتمة، نهضت ونفضت ملابسي، وشعرت بأنّ آلامي قد اختفت تمامًا، وصرت أطوف في أرجاء الخان المكتَظَّ بالتجّار والمتبضِّعين وباعة الشاي والحمّالين الذين يجرّون عربات مليئة بسبائك الفِضَّة. كانت وجوه الجميع مُضاءة كما لو أنَّها قُدَّت من الفِضَّة نفسها، وشممت رائحة بخور مخلوطة برائحة الهيل، وبحثت بين الوجوه عن وجه مجر من دون جدوى. وفي زاوية قريبة، لمحت مُصَلّى غريبًا مفروشًا ببعض البسط والسجّاد الثمين، ولمحت عبارة بخطّ غريب مكتوبة على الجدار بحروف عربيّة لكنَّها ليست عربيّة! وقرب هيكل خشبيّ قديم، كان رجل عجوز يوقد شموعًا الواحدة من الأخرى..

ـ خُلقت أرواحهم من بعضها بعضًا، كما توقد الشموع واحدة من الأخرى..

كان صوت مجر بالتأكيد، لكنَّني لم أره..

ـ عمّ مجر؟.. أين أنت؟!

التفت الرجل العجوز ناحيتي، وأوشكت أن أعتذر منه، لكنَّه بدا كما لو أنَّه لم يرني.

كان مجر قد حدّثني في لقاءاتنا المتباعدة عن خان الشابندر وعمله فيه، وكيف كان بمثابة بورصة للفِضَّة تُحدَّد فيه الأسعار بشكل يوميّ، عندما تُجلب سبائك المعدن الثمين بواسطة السفن حتى شريعة القشلة، ومن هناك يحملونها على ظهور الحمير حتى الخان.

مرَّة، سألت هند عن مجر ومن يكون.. قالت إنَّه عتيق جدًّا، عمره أكثر من مائة عام، منذ وطأت قدماي منزل أمّ صبيح وهو يجوب الأرجاء ويعرف مفاتيح الأمور.. أسمع عنه الكثير من الحكايا الغريبة، لكنَّه طيِّب القلب، وفي أغلب الأحيان يبدو مثل ملاك حارس.. حتى إنَّه حمى الرؤوس من القطط والطيور الجارحة مدَّة طويلة قبل أن ترفعها أمّ غايب.

* * *

في المساء، جلسنا على الأرض نتناول حساء الدجاج ـ أنا وهند. كانت تُطعمني بيدها بين الفينة والأخرى، قبل أن تقترح عليَّ الصعود إلى السطح ومشاهدة النجوم.

كان الليل باردًا ورطبًا، وثمَّة كرسيَّان من الجريد وضعتهما متلاصقين، فجلسنا فوقهما.. وشاهدت لأوَّل مرَّة النجوم الكبيرة وهي تصعد من جوف الخان نحو السماء البعيدة، بينما كان مجر في زاوية من زوايا السطح يشعل نارًا في منقلة كبيرة ليشيع الدفء، وبدا غير مبال بنا! نزلت هند إلى الطابق الأوَّل، وعادت تحمل قدحًا من الشاي وبطّانيّة صغيرة، تنكّبنا بها معًا... وراحت ترتشف الشاي بتلذّذ وتقدِّمه لي لأرتشف منه. شعرت بأنّ الخرائب المُظلمة من حولنا تعجّ بحركة مبهمة، وانتابني قلق وحيرة، لكن هند احتضنت زندي وركنت رأسها فوق كتفي وهي تتأمّل النجوم، بينما لاح مجر خلف كانونه المشتعل مثل ملاك

على أهبّة التحليق، كنّا نراه ولا يرانا في زاويتنا المُظلمة، وكانت هند تقبّلني بين الفينة والأخرى وتتشبّث بذراعي. وتناهت إلى سمعي أغنية بغداديّة قديمة.. تنساب من مكان ما وسط الخرائب المنتشرة حولنا، وخُيِّل إليَّ أنَّنا لسنا في بغداد، بل في يوتوبيا غريبة مُعلَّقة في مكان ما بين الأرض والسماء. قالت هند من دون أن تنظر إليَّ:

ـ هل تعلم؟.. لديّ ابنة اسمها سارة.. عمرها الآن أربعة عشر عامًا!

لم أعلِّق، واكتفيت برمي ذراعي حول كتفيها، وأحكمت الغطاء فوقه:

ـ لَم تعلّق يعني؟..

ـ لقد مللت.. منذ أيّام وأنا أحاول حملك على إخباري بقِصَّتك، لكنَّك تتحجَّجين دائمًا بأعذار واهية، حتى اعتقدت بأنَّك لا ترغبين بذلك.. الآن في هذا المكان البارد والمُظلم، تخبريني بأنّ لديك ابنة؟!

ـ أحسن.. حتى إذا بكيت لا ترى دموعي.

ـ يا لكِ من مكابرة!

ـ إنَّها في نيوزيلاندا الآن.. لم أرها منذ أكثر من خمس سنين.

أحضر مجر بعض الجمر في صفيحة صدئة، ووضعه قرب أقدامنا، وهمهم بكلمات لم أفهمها قبل أن يبتعد.

ـ هل ترغب بسماع الحكاية أم لا؟

تساءلت هند وهي تداعب شعر صدري بيدها.

ـ نعم.. أرغب بشِدَّة. استرسلي بالكلام، ولا تثيري أعصابي.

ـ سلامة أعصابك.. عيني! حسنًا، اسمع.. سأقصُّ عليك الحكاية من البداية شرط أن تقبّلني.

فقبّلتها.. ثم طلبت أن أقبّل يدها ففعلت، ثم طلبت تقبيل ركبتها ففعلت أيضًا.. فأطلقت ضحكة مكتومة، وقالت:

ـ يا لك من مجنون! اسمع.. باختصار، تزوَّجت في مدينتي الناصريّة من زميل لي في العام ٩٠، وأنجبت سارة في العام ٩١.. كان زوجي يحبّني حُبًّا جَمًّا، وهو رجل طيِّب وشهم، ويحبّ ابنته ومتعلِّق بها.. وذات يوم، مرضت سارة مرضًا شديدًا، فخاف عليها وقرّر نقلها إلى بغداد ليعرضها على أحد الأطبّاء.. كانت الانتفاضة الشعبيّة قد انتشرت آنذاك، وسقطت أغلب المدن بأيدي الثوّار الذين لم يصمدوا طويلاً أمام زحف القوّات الحكوميّة، وسرعان ما صار الجيش يستولي على المدن، ويستعيدها من الثوّار الواحدة تلو الأخرى.. وفي الطريق من الناصريّة إلى بغداد، أوقفتنا نقطة تفتيش قرب مدينة الكوت. واعتقدنا أنَّها للثوّار، لكن تبيَّن لاحقًا أنَّها لرجال الحرس الجمهوري، فأنزلونا جميعًا من السيّارات الآتية من الجنوب، وجمعونا قرب ساقية قديمة للبزل.. كان هناك أكثر من مائتين من الرجال والنساء والأطفال، وكان الليل حالكًا.. وفجأة، ومن دون سابق إنذار، أخذوا يطلقون النار علينا من رشّاشاتهم.. فتعالى الصراخ

وصيحات الفزع وتدافع الناس محاولين النجاة من الجحيم الذي فُتح عليهم، فدفَعَنا زوجي باتّجاه الساقية ورمى بجسده فوقنا وانحشرت سارة بيني وبينه، وشعرت بكعوب القصب تنغرز بفخذيّ وبطني، بينما حاولت جاهدة حماية سارة التي بدت ساكنة من دون حراك.. تواصل إطلاق النار لأكثر من عشر دقائق، كنت خلالها أسمع أزير الرصاص وهو ينغرز في الأجساد من حولي أو في الطين، حتى غبت عن الوعي.. عند الفجر، تنبّهت لحركة قريبة منّي وصوت سارة وهي تبكي بكاءً خافتًا.. حاولت رفع زوجي من فوقنا، فلم أستطع. كان جسمي متيبِّسًا تمامًا.. ثم لمحت أحد الرجال يقترب بعد أن لفت انتباهه بكاء سارة، فناديته بصوت مبحوح.. ساعدني أرجوك.. فاقترب الرجل، وأزاح جثَّة زوجي من فوقنا وانتشل سارة من بين يدي، قبل أن يساعدني على النهوض بصعوبة.. كانت لديه عربة نقل صغيرة. أجلسنا في مقدِّمتها ووضع سارة بين ذراعيّ، وعاد يبحث عن أحياء آخرين.. عاد الرجل بعد برهة، وهو يصيح لا حول ولا قوَّة إلّا بالله.. ثم سألني.. هل هناك ناجون غيركم؟.. فأجبته مرتبكة.. لا أدري.. لا أظنّ! لقد أطلقوا النار علينا.. لقد قتلوهم كلّهم. ورحت أبكي.. ثم رجوته أن يخلي جثمان زوجي، لكنَّه رفض، وقال إنّ رجال الحرس سيأتون بعد قليل لدفن الضحايا وإخفاء معالم الجريمة، وإنّ أمامنا بضع دقائق للهرب.. فاستسلمت للأمر وأخذنا الرجل إلى قرية صغيرة، وتركنا مع زوجته وبناته.. ومضى. كانت هذه آخر مرّة أرى فيها زوجي المسكين.. وما إن تعافت سارة قليلاً حتى عدت إلى الناصريّة، وبقيت مشلولة التفكير

لأكثر من سنة قبل أن أعود لمهنتي في تدريس الجغرافيا للبنات، وتلبَّسني هاجس الانتقام منذ ذلك الحين، وتغيَّرت شخصيِّتي وانقلب مزاجي، وصار كلّ همّي توفير الأمان لسارة.. حتى بدأت الحرب، ووصل بعض الأميركان والبريطانيين إلى حوافّ مدينتنا.. ثم بلغني من أحد معارفي أنَّهم يبحثون عن مترجمين، فتطوّعت للمُهِمّة.. خصوصًا وأنّ المدارس كانت مغلقة بسبب الحرب، وكنت بحاجة إلى المال.. وبعد أن اختبرونا، قاموا بتوزيعنا على بعض الوحدات العسكريّة، وكانت حِصّتي وحدة هندسة صغيرة تابعة للجيش النيوزيلاندي.. وهناك تعرّفت إلى مارك..

ـ من يكون مارك؟

ـ سيرجنت صغير وطالب هندسة، توطّدت علاقتي به.. وكانت مجرَّد علاقة صداقة وودّ، وكانوا في الوحدة يعاملوني بلطف واحترام، وكنت أصحبهم إلى بعض المواقع الأثريّة ليلتقطوا الصور.. ولم تكن وحدتهم من الوحدات القتاليّة بل متخصِّصة بنصب الرادارات وبعض محطّات الاتّصال.. وذات يوم، نظّموا حفلة صغيرة في الوحدة، فأحضرت سارة معي، وأحبّوها وتعلَّقوا بها وصاروا يلتقطون الصور معها.. ثم سرعان ما جاءتهم الأوامر بالانتقال إلى البصرة. كان مارك قد وعدني بترتيب لجوء لنا في نيوزيلاندا ـ أنا وسارة ـ وكان قد فاتح الضُبَّاط بهذا الشأن.. وما إن سافرت الوحدة إلى البصرة حتى داهمت إحدى الميليشيات بيتي، واعتقلوني بتهمة التعاون مع المحتلِّين.

كانت هند تسرد قِصَّتها، وتتشبّث بذراعي بقوَّة، كما لو أنَّها تخشى من أحد ما.. وكنت أحاول تهدئتها وتقبيل يدها الطليقة.

عبثًا، حاولت شرح الأمر لهم ورواية قِصَّتي، وكيف أنَّني ضحيّة أيضًا من ضحايا النظام الذي كانوا يقارعوه، وكيف قتل رجال الحرس الجمهوري زوجي، وكيف انتقموا منّا عندما وضعونا في ساقية البزل وأطلقوا النار علينا، وكيف واجهت الموت المُحَقَّق قرب مدينة الكوت.. لكنَّهم صمّوا آذانهم، وكانوا موتورين ومرعوبين يتحكَّم بهم غضبهم وحقدهم.. وذات مساء، جاءني شابّ من محلّتنا كان يعمل مع الميليشيا، وأحضر لي بعض الطعام، وأخبرني بأنَّهم سيقتلوني في الصباح، وطلب منِّي كتابة رسالة لأهلي أودّعهم فيها.. فكتبت رسالة بالإنجليزيّة إلى مارك رجوته فيها أن يصطحب سارة معه إلى نيوزيلاندا، وقلت له عندما تصلك رسالتي هذه أكون قد متّ، ولم يبق لسارة سواك من أمل في النجاة.. ثم طلبت من الشابّ تسليم الرسالة إلى أختي الصغرى لتأخذها مع سارة إلى البصرة، وتسلِّمها إلى مارك.. ولم أعرف ما الذي حصل بعد ذلك.. وفي الصباح، أخرجني اثنان من رجال الميليشيا واصطحباني إلى مكان وسط القصب والبردي عند حافّة الهور وأطلقو النار فوق رأسي فوقعت على الأرض وأنا أعتقد أنَّني قد متّ.. ثم اقترب أحدهم وطلب منِّي هامسًا بأن أهرب عبر الأهوار، ولا أدع أحد يراني.. فهربت متخفّية بملابس قرويّة من قرية إلى أخرى على مدى شهر.. حتى وصلت البصرة، واتّجهت إلى إحدى الوحدات البريطانيّة وحدَّثتهم باللغة الإنجليزيّة، فاستغربوا هيئتي وشحوبي، وأخبروني بأنّ الوحدة

النيوزيلانديّة قد غادرت قبل يومين.. فعدت إلى البصرة وحاولت الاتّصال بأختي، ثم سمعت بأنَّهم قتلوها حال عودتها من البصرة، وعندما علموا بأمر الرسالة، قتلوا الشابّ الذي حمل الرسالة أيضًا، وطلبوا منِّي عدم العودة إلى المدينة بأيّ حال من الأحوال.. ولم يكن معي أيّة نقود، فلجأت إلى أحد الفنادق الصغيرة؛ وعندما علم صاحب الفندق بحالي، حاول مساومتي، وكان ثمَّة رجلان بدت عليهما علامات الثراء نهراه وتبرّعا بدفع أجور الفندق، وفي الصباح عرضا عليَّ مرافقتهما إلى بغداد لأنَّهما بحاجة إلى سكرتيرة للعمل في مكتبهما.. وهناك استغلّاني أبشع استغلال، وصارا يتركاني في الشقّة ويقفلان الباب عليَّ كي لا أهرب.. لكنَّني تمكَّنت في أحد الأيّام من كسر الباب والهرب، وهمتُ على وجهي ـ ولم أكن أعرف أحدًا في بغداد.. حتى توقّفت عند أحد الأسواق الكبيرة، وكان الوقت صيفًا والحرارة على أشدّها.. وشعرت بدوار وغثيان، فجلست تحت شجرة وأغمي عليَّ، ثم صحوت على أصوات الناس وهم يتجمّعون حولي، وامرأة ضخمة تحتضن رأسي وترشّ الماء البارد على وجهي وتمسحه بعباءتها، وطلبت من الناس التفرّق والابتعاد عنِّي.. وما إن استعدت وعيي حتى أوقفت سيَّارة أجرة وأحضرتني إلى هذا المنزل!

كانت دموعها الحارّة تسيل على كتفي وجسدها يرتجف، وكنت بين الحين والآخر أمسح وجهها بيدي وأحتضنها بقوّة.. وطلبت منها أكثر من مرَّة أن تتوقَّف عن سرد الحكاية، لكنَّها في كلّ مرَّة تصرّ على المواصلة.

نامت هند بعمق متوسِّدة ذراعي، كما لو كانت تنتظر إفراغ رأسها من الحكايا لتنعم بالسلام، فأحكمت الغطاء حول جسدها المُتكوِّر بحضني، وركنت حنكي إلى رأسها الذي كنت أقبِّله بين الحين والآخر، وأستنشق رائحة شعرها.

كان مجر يتململ في زاويته المُضاءة، ويحرص على عدم إثارة أيّة جلبة قد توقظ هند.. تقدَّم ببطء ووقف أمام كانونه، فحوَّله الضوء المنبعث خلفه إلى خيال بهيئة غريبة.. مدّ ذراعه وأشار إلى السماء بسبّابته المقوَّسة، وقال:

ـ انظر إلى تلك النجوم البعيدة.. إلى ذلك الكون الفسيح.. كم عمرنا باعتقادك؟.. قياسًا بعمر الزمان؟.. لقد وجد هذا الكون قبلنا بملايين السنين.. وسيبقى بعدنا بملايين السنين أيضًا.. لكن هل استفاد البشر من عمرهم القصير؟ أم أفنوه بانتظار الموت؟

انظر إلى هند.. كم هي جميلة وشغوفة ومحبّة للحياة، على الرّغم من آلامها.. هل تمتّعنا بهذا الجمال كلّه من حولنا؟.. أم نسينا في زحمة سعينا للكمال إنسانيّتنا؟

ما الذي فعلته بنا أفكارنا؟.. ما هو حجم خسارتنا الفادحة يا ترى؟.. لقد أفقدتنا الحياة المتسارعة قدرتنا على التأمُّل.. لم نعد قادرين على ذلك حتى.. انظر إلى ذلك الخراب من حولنا.. البيوت مُهَدَّمة على أسرارها.. لكنّ العشب ما زال ينمو فوق السطوح المائلة.. يغتسل بضوء القمر ليلاً وينمو غير عابئ بما نفعله.. والفواخت.. هل رأيت الفواخت وهي تطير مُحلّقة فوق

النهر؟ تجفلها القنابل.. لكنَّها تُحلّق في فضاء المدينة، كما كانت تفعل منذ آلاف السنين.. ماذا يعني لك الحبّ؟.. ها؟ أنتم المادِّيّين تعتقدون أنَّه نوع من الكيمياء وحسب.. لكن، أتعلم؟.. كتُبنا تقول إنَّه الله يخفق في أفئدتنا.. أرواحنا الحبيسة وسط أجسادنا مثل حمامة شغوفة، هي الله نفسه الذي يفني الكثير من البشر حياتهم بحثًا عنه في أماكن أخرى.. لهذا فإنّ الأرواح لا تموت.. الأجساد تفنى، لكنّ الأرواح تظَلّ مُحلّقة في ملكوت الله.

كان يتحدَّث بتؤدة وهدوء وبصوت خافت أقرب للهمس.. حاولت أكثر من مرَّة أن أسأله عن كتبهم تلك، لكنَّه في كلّ مرَّة يسترسل في الكلام.. يطلق الأسئلة ويجيب عنها في الوقت نفسه؛ وكنت أجد نفسي مأسورًا بكلامه، وقوّةٌ داخلي تجبرني على الإصغاء إليه باستسلام وحيرة.

كان يتحدَّث إليَّ من دون أن ينظر باتّجاهي، بل ظَلّ طول الوقت ينظر إلى النجوم في السماء، ويُحرّك الجمر في موقده بين الحين والآخر، بينما أشاع جسد هند النائمة على كتفي الدفء في جسدي، وهي تعزف موسيقى أنفاسها الساحرة قرب أذني.. عدّلت من وضع الغطاء حول كتفيها، ونظرت إلى السماء المُطَرَّزة بالنجوم.. لم يسبق أن رأيت هذا العدد الهائل منها! ربّما أسهمت الظلمة التي سبّبها انقطاع التيّار الكهربائي في المدينة بتألُّقها المبهر!! وخُيِّل إليَّ أنَّ ثمَّة كواكب تسير ببطء تاركة خيوط ضوء ناحل خلفها، وأخرى تخطف مسرعة بين الفينة والأخرى.. نظرت إلى مجر الواقف خلف الكانون منذ ساعات.. بدا كما لو

كان يتمتم بعبارات غير مفهومة. حاولت الإصغاء جيِّدًا، كان يمسك ملقط الجمر المعدنيّ ويضمُّه إلى صدره، كما لو كان صليبًا، ويتمتم: ابْشومَيهون إد هيّي ربّي.. هَللين أيدن ابكَشطا، واسفن ابْهيمنوثا، ومللنين ابملالي اد زيوا، واسهي طبن آب... كانت لغة غريبة لم أسمعها من قبل، حاولت الإصغاء جيِّدًا، لكنَّه انتبه إلى نظراتي الحائرة، فالتفت نحوي وهو يبتسم..

ـ أيّة لغة هذه يا عمّ مجر؟

أشار مجر إلى النجوم من دون أن يجيب على سؤالي..

ـ أترى تلك الكواكب السابحة؟.. أقصد تلك التي تخطف بين الحين والآخر في الأعالي؟

ـ نعم. رأيتها.. تبدو كثيرة وآسرة هذه الليلة.

ـ إنَّها ملائكة الضياء تُسبّح لملك النور..

خطفت بصري ثانية إلى الكواكب البعيدة، وشعرت برهبة مفاجأة أقشعرَّ لها بدني.. ثم نظرت إلى مجر الذي بدا منيرًا في ضوء الكانون! وسألته:

ـ هل تراهم؟..

ـ من؟.. الملائكة؟.. طبعًا أراهم.. انظر حولك.

نظرت حولي مندهشًا مرتهبًا، ولم أر سوى الظلام المطبق على سطوح الخرائب المُهَدَّمة.. في الواقع، طالما سمعت حركة ما أو خفق أجنحة ما، وشممت رائحة زكيَّة تنبعث من الزوايا، لكنَّني لم أر شيئًا..

ـ لقد أرعبتني يا عمّ مجر.

ـ ولِمَ ترتعب يا عزيزي؟.. إنَّهم أقرب إليك ممّا تتَصوَّر.. لكن لا تخف.. فكلّهم لطفاء طيِّبون، وحُكماء صادقون.. لا إساءة فيهم ولا خِداع.. بعضهم يحلّ في منازلِ بعض لا يُخِطئون، ولا بعضٌ إلى بعض يُسيئون، مُعزَّزون مُكرَّمون.. نواياهم بعضهم لبعض مكشوفة، وأخبار ما تقدَّم وما تأخَّر لدَيهِم معروفة، يُنير بعضُهم بعضًا، ويُعطِّر بعضُهم بَعضًا، لا زَوال لهم ولا يشيخون، ولا يتوجَّعون ولا يضعفون، لا يجوعون ولا يعطشون، لا ذبول في أزهارهم، أعوامهم لا عدّ لها، وحياتهم لا كيل لها، فرحون مُبتهجون، بخطًى سريعةٍ ينطلقون، وفي أرض آيرَ البيضاء يطيرون.. حيث الضياء التامّ لا غروب ولا إظلام، وجوههم من نور.. شفّافون كالبلُّور.. ثم نظر نحوي، وقال:

ـ هل فهمت الآن؟

ـ نعم. فهمت.. لكنَّني ازددت حيرة.

ـ الحيرة خفق الروح الملتاعة لتعرف.. لكنّ الخوف قِلَّة إيمان! هل ما زلت خائفًا؟

شعرت براحة تامّة في الواقع.. كما لو أنّ مجر أزاح عن رأسي الخوف كلّه، ونثر الطمأنينة وسط أضلاعي الخافقة.

ـ لكن.. أين تقع أرض آيرَ، ولِمَ هي بيضاء يا عمّ مجر؟

أشار مجر إلى مكان ما في السماء الضاجّة بالنجوم، فنظرت إلى حيث أشار.. في البدء رأيت نجومًا تتزاحم وتتباعد.. لكنَّني حين ركّزت أكثر خُيِّل إليَّ أنَّني أرى نجمًا وسطها بدا أكبر قليلاً ولونه مائل للزرقة.. كان يومض بوضوح آسر، فشدّ ناظري وبقيت

مركّزًا عليه خوف أن يضيع منّي وسط النجوم الأخرى.. لا أدري كم مرَّ عليَّ من الوقت وأنا أتطلَّع إليه!! لكنَّني حين عدت بنظري إلى السطح لم أر مجر خلف الكانون الذي بدأ يخبو.. تلفّتُّ يمينًا وشمالاً.. لا شيء سوى الظلمة المنتشرة.. حاولت مناداته، لكنَّني خفت من إفزاع هند النائمة على كتفي مثل ملاك حقيقيّ، فركنتُ رأسي إلى رأسها وأحكمت الغطاء من حولنا، ونمت.. فحلمت بالملائكة الشَفَّافة كالبلّور.. تلك التي تطير في أرض آير.. كم بدت وجوهها مُنيرة حقًّا!

خبا الجمر الذي وضعه مجر قرب قدمينا، واشتدَّت برودة الجوّ، فنهضت ولففت جسد هند بالبطّانيّة وحملتها إلى غرفتها وسَجَّيتها فوق سريرها، وتأمّلت وجهها الأبيض الذي بدا في عتمة الفجر مضاءً، فانسللت إلى السرير وتمدَّدت بجانبها، وبقيت أتأمّلها وأتلذَّذ بصوت أنفاسها الساحرة.

* * *

لا أدري كم من الوقت استغرقنا في النوم، حتى صحوت على صوت طرْق خفيف وحركة أمام باب الغرفة، بينما كانت هند تغطّ في النوم.. نهضت بحذر وأعدت الغطاء على جسدها وما إن فتحت الباب حتى طالعني وجه ضويَّة باسمًا مشرقًا.. فضحكت، وقالت متهكِّمة:

ـ يا عيني عليك.. غارق بالعسل.. من مثلك؟!

أشرت لها بالتزام الهدوء، لأنّ هند ما تزال نائمة، فدفعتني برفق وأطلَّت من خلف الظلفة المواربة. وعندما رأت هند تَغَطّ في النوم، عادت للحديث بخفوت أقرب للهمس:

ـ هل تناولت فطورك؟

ـ لا.. ما زلت بانتظار هند.

ـ دعك من هند.. يبدو أنَّك قد هَدَّيت حيلها البارحة..

أغسل وجهك، بينما أحضِّر لك الفطور.

مضت ضويَّة نازلة السلّم وهي تبتسم بلؤم، ومضيت إلى الحمّام الصغير لأغتسل..

كان ضوء الشمس يملأ الغرفة وينعكس على وجه هند النائمة بعمق، وبدا جفناها المطبقان مثل فراشتين نائمتين.. شعرت برغبة عارمة لتقبيلها، كما لو أنَّني أكتشفها لأوَّل مرَّة، لولا أنّ ضويَّة عادت من جديد حاملة صِينيَّة صغيرة فيها طبق من البَيض المقلي والخبز وقدح شاي كبير..

ـ تناول فطورك بسرعة.. ليس لدينا وقت.

لفتت هيأة ضويَّة الغريبة انتباهي.. كانت ترتدي دشداشة رجّاليّة بيضاء، وفوقها سترة رماديّة من تلك التي يرتديها رجال البلديّة، بينما أسدلت فوق كتفيها يشماغًا مُرَقَّطًا..

ـ ما هذا الذي ترتدينه؟.. ولِمَ علينا العجلة؟

قالت ضويَّة وهي تتَفحَّص هيئتها أمام مرآة هند.

ـ سنذهب إلى النهر.. ألم تعدني؟

ـ لا.. لم أعدك.. أنت طرحت الفكرة عليَّ فقط، ولم أجارِك وقتها.. أخبرتك بأنّ خروجك في مثل هذه الأوضاع محفوف بالمخاطر!

ـ لا تقلق.. لن ينتبه أحد لخروجي.. ألا ترى؟.. سأتخفّى بهيئة عامل تنظيفات.

وقفت أمامي بعد أن تلفّعت باليشماغ المُرقَّط حتى أنفها، ولم يظهر من وجهها سوى عينيها..

ـ لكنَّ عينيك فاضحتان يا عزيزتي.. لا يوجد عامل نظافة له مثل هاتين العينين..!

اقتربت منِّي، وهمَست برقَّة:

ـ أستاذ علي.. لا تعقّدها.. هل تريد أن أضع نظّارة؟ لا مانع لديّ.. لكنْ، سأذهب إلى النهر.. يعني سأذهب إلى النهر!

ـ حسنًا.. لكن تناولي شيئًا على الأقلّ.

ـ لا.. لا يجوز أن آكل أيّ شيء قبل التطهُّر بالماء.

ـ ماذا تقولين؟.. عن أيّ تطهّر تتحدَّثين؟

ـ سأشرح لك كلّ شيء لاحقًا يا عيني، لكنْ دعنا نمضِ قبل أن يستيقظ الناس وينفضح أمرنا..

سقط الأمر بيدي، وما إن أنهيت فطوري حتى ارتديت ملابسي وتهيّأت للخروج، ثم طلبت من ضويَّة إخبار هند على الأقلّ كي لا تقلق عندما تصحو ولا تجدني، لكنَّها رفضت بشدّة:

ـ لا.. أرجوك.. إذا صحت هند لن تسمح لك بالمغادرة.. هذا مستحيل!

ـ لكنَّها ستقلق عندما تصحو ولا تجدني.

ـ لا تقلق.. لقد أخبرت لوصة سرًّا بأن تخبرها عندما تصحو.. وربّما تمكّنَّا من الذهاب والعودة وما تزال بعد نائمة!

استسلمت لرغبة ضويَّة، وخرجت بهدوء.. وأحكمت إغلاق الباب على هند. كان الوقت مُبَكِّرًا وما زال الجميع نائمين، فتسلّلنا إلى الدهليز ومنه إلى الزقاق الصغير، واتّجهنا صوب النهر.

كانت ضويَّة تغذّ الخطى غير عابئة، بينما بدت مشيتها غريبة بسترتها الكبيرة ويشماغها المُرقَّط. في الواقع، لم تكن تشبه عمَّال البلديّة على الإطلاق، وكنت قلقًا أتلفّت من حولي خوف أن يرانا أحد المارَّة أو أحد رجال المُلّا جليل، حتى وصلنا مبنى القشلة القديم، لم أكن أعرف الطريق إلى النهر من هذه الأنحاء، لكن ضويَّة انعطفت في زقاق صغير ينحشر بين بنايتين مُهَدَّمتين، ومن هناك لاح لي منظر النهر لأوَّل مرَّة، بُنّيًّا متقلِّبًا وهو يتدحرج باتّجاه الجنوب، بينما حلَّقت بعض طيور بيض فوقنا.

نزلنا سلّمًا صغيرًا حتى الشاطئ الطينيّ، حيث ربطت بعض الزوارق الصغيرة المتراقصة إثر الموج. كانت ضويَّة تنتعل حذاءً جلديًّا قديمًا ربطته بإحكام حول قدميها الصغيرتين، وما إن وصلنا الجرف حتى رفعت الثوب الأبيض عن ساقيها، وربطت ذيله حول خصرها، كما يفعل الصيَّادون.. وصارت تخوض في الطين حتى وصل الماء إلى خصرها، ناديت عليها من مكاني على الجرف الطينيّ:

ـ ماذا تفعلين أيّتها المجنونة؟.. ستلفتين انتباه الصيَّادين في الضفّة الأخرى!

لكنَّ ضويَّة اكتفت بالتفاتة لامبالية نحوي، ومضت تخوض في النهر حتى وصل الماء إلى صدرها.. ثم سرعان ما صارت ترفع الماء بكفيها وتلقيه فوق رأسها وهي تتمتم، وبعد برهة، انحنت في النهر حتى اختفى جسدها كلّه تحت الماء، قبل أن تخرج رأسها وتنفضه إلى الخلف وتنفخ الماء بانتشاء.. كرَّرَت ضويَّة عمليّة الغطس ثلاث مرّات حتى انحسرت الكوفيّة عن

رأسها، ولاح شعرها الطويل ملتصقًا بوجهها وكتفيها.

عادت أخيرًا إلى الجرف وهي تضحك. كان الطين قد اعتلى ساقيها، وما إن مسّتها الريح حتى صارت ترتجف بشدَّة، لكنَّها لم تكن تبالي على ما يبدو، واختبأت خلف نخلة قريبة ونزعت السترة والغترة وراحت تعصرهما من الماء، وبدت الدشداشة البيضاء المبلّلة ملتصقة بجسدها، وبرز نهداها من تحت القماش.

كنت منذهلاً من هول المفاجأة ولم أنطق بكلمة، واكتفيت بتأمُّلها مستسلمًا لإرادتها ورغبتها الغريبة، وكنت أفكِّر في طريق العودة وهي على هذه الحال، خصوصًا وأنَّ الناس قد صحوا الآن، وستصبح الشوارع مُكتظّة بالمارّة.

اقتربت منها ببطء، فنظرت إليَّ وهي تبتسم:

ـ مفاجأة.. أليس كذلك؟

ـ أنتِ مجنونة بالتأكيد.. كيف سنتمكّن من العودة وأنت بهذه الحال؟

ـ لا تقلق يا عزيزي.. سنرى.

ارتدت السترة المبلّلة من جديد ولفَّت الغترة حول رأسها، بعد أن نظَّفت الحذاء من الطين، وراحت تتسلّق السلّم وأنا أتبعها، ثم أخذنا نسير في الأزقَّة الضيِّقة.. وبين الحين والآخر، تلتفت نحوي لتريني ابتسامتها الواثقة.

ـ اسمع.. أعرف أنَّني أتعبتك معي.. لكن بقيت مأموريّة صغيرة واحدة.

ـ أيّة مأموريّة؟.. ألا تعرفين معنى الخوف؟

ـ لا . . لقد خبرته . . ومتُّ وحييت عشرين ألف مرَّة . . فلا تقلق يا عزيزي!

دلفنا زقاقًا صغيرًا تُظَلّله نخلة كبيرة وتُعرّش في فضائه شجرة سدر وارفة، وفي آخر الزقاق ثمَّة باب خشبي صغير غاص نصفه في الأرض، طَرقت ضويَّة الباب بثقة، وبدت كما لو أنَّها تعرف ماذا تفعل، فُتح الباب وخرج منه صَبيّ صغير تطلَّع إلينا باستغراب أوَّل الأمر، لكن ما إن رفعت ضويَّة أطراف الكوفيّة عن وجهها حتى انفرجت أساريره ودخل راكضًا، وهو يصيح:

ـ جدّتي أمّ غايب . . جاءت ضويَّة . . جاءت ضويَّة.

وسرعان ما خرجت سيَّدة متقدِّمة في السنّ يتبعها عدد من الصِبْيَة، ورحّبوا فرحين بضويَّة. بدا الجميع يعرفها، قبّلتها المرأة المُسنّة وعانقتها، والتفّ حولها الصِبْيَة بجذل وهم يجرّونها جرًّا لتدخل المنزل . . التفتت ضويَّة صوبي:

ـ هذا أستاذ علي . . صديقنا الذي حَدَّثتك عنه في المرّة السابقة.

اقتربت المرأة منِّي وهي تنظر باستغراب.

ـ أهلاً ومرحبًا . . حلَّت البركة.

ثم التفتت صوب ضويَّة.

ـ أدخلوا . . سأعمل لكما الشاي حتى تجفِّفي ملابسك.

لكنَّ ضويَّة اعتذرت وأخرجت من جيب السترة حزمة من النقود المبلَّلة، ودَسَّتها بيد المرأة التي أخذتها وخبّأتها بجيبها، قبل أن تقترب من ضويَّة وتمسّد على شعرها المبلَّل . .

ـ هل أوفيت بنذرك يا بُنيّتي؟

ـ نعم، جدّتي.. أخيرًا. الفضل لأستاذ علي.. لولاه لما تمكَّنت من الوصول إلى النهر.

ـ الله يجازيه بالخير ويعطيه العافية.

ثم اقتربت من ضويَّة، وهمست بصوت خفيض لكنَّه مسموع..

ـ يبدو عليه أنَّه ليس من ملّتنا!

تجاهلت ضويَّة سؤال المرأة الأخير، وتظاهرت بعدم سماعه، ثم عانقتها من جديد وقبّلتها.

ـ حسنًا يا جدّتي.. انتبهي لصحّتك واهتمّي بالأولاد.. قد لا أستطيع المجيء ثانية! وإذا حدث شيء، ابعثي أحد الأولاد إلى مجر وهو يتصرّف.

ودَّعنا المرأة المسنَّة ومضينا في طريقنا من زقاق إلى زقاق.. كانت عشرات الأسئلة تشتعل برأسي، وما إن هممت بسؤالها حتى التفتت صوبي مبتسمة كعادتها وهي تغذّ الخطى:

ـ ممكن أن لا تسألني عن أيّ شي الآن؟

ـ لا.. ليس ممكنًا!

أمسكت بيدي وصارت تجرّني خلفها، كما لو كنت طفلاً يتعثَّر بأذيال أمِّه، وأحسست ببرودة كفّها وارتجافة جسدها تحت السترة الفضفاضة المبلَّلة، وسرنا صامتين لفترة، نتقافز فوق الطوب والآجر المُهَدَّم، ونتحاشى سواقي الأمطار الصغيرة..

ـ أمّ غايب امرأة صالحة تسلّلت ذات ليلة من مقبرة باب المعظّم، وسكنت هذا البيت المُهَدَّم.

قالت ضويَّة ذلك، من دون أن تتوقّف أو تنظر نحوي، فاشتعلت الحيرة في رأسي. لمحنا عامل نجارة مُنْكَبّ على عمله في أحد الأزقَّة، فأحكمت ضويَّة اليشماغ حول رأسها.. أوقف العامل الطرْق، وراح ينظر صوبنا.

ـ لا تنظر نحوه.. اطمئنّ.. هو لا يراني أنا. سِرْ بشكل طبيعي.

واصلت السير، وما تزال الأسئلة تضجّ برأسي.

ـ كانت تعمل ممرِّضة في مدينة الطبّ القريبة من المقبرة، قبل أن يقصفها الأميركان ويقتلوا من فيها.

ـ من؟..

ـ أمّ غايب.. ما بك؟

ـ هل تقصدين أنّها..

ـ لا.. هي الآن تعيل مجموعة من الصِبْيَة والفتيات المُشرّدات.. تلتقطهم من الشوارع، أو يلجأون إلى بيتها.. ونحن نساعدها بما نقدر عليه بين الحين والآخر..

ـ من تقصدين بـ نحن؟

ـ أقصد نحن.. أنا والبنات وأمّ صبيح..

دوّى انفجار هائل في مكان ما قريب أثار موجة من الهباب والدخان، تلته رشقات مُتقطِّعة من الرصاص ثم انفجار آخر أقرب

من سابقه.. اهتزّت الخرائب من حولنا، وقذفت إلى الأزقَّة بعض نوافذها الخشبيّة المتهرِّئة، وتساقطت ألواح الصفيح الصدئة.. جفلت ضويَّة أوَّل الأمر وتشبّثت بي، لكنَّها سرعان ما استعادت وعيها.. تلفَّتت يمينًا وشمالاً قبل أن تركض باتّجاه أحد الأبواب المقفلة بالخشب والمسامير، وصارت ترفسه بقوّة، لكن من دون فائدة. كنت منذهلاً وقلبي يخفق من المفاجأة، وأنا أنظر إلى طرف الزقاق الذي بتّ أسمع من جهته أصوات نداءات وصياح وإطلاق نار وأقدام راكضة.. جرَّتني ضويَّة فجأة من ياقتي.

ـ ساعدني.. هذا الباب أملنا الوحيد.

نفضت رأسي محاولاً التركيز، اقتربت من الباب وركلته بقوّة، فاندلقت ظلفتاه عن جوف مظلم وسقطت على الأرض، وشعرت بألم حادّ في كاحلي. جرَّتني ضويَّة جرًّا إلى الداخل، وأعادت إغلاق الباب ثم أسندته بقطعة خشبيّة كبيرة، وصرنا نخوض في الظلمة ونتعثّر بالعلب الصدئة وقطع الأثاث القديم.

توالى إطلاق الرصاص في الأزقَّة القريبة تتخلَّله انفجارات القاذفات من حين لآخر، وتناهت إلى سمعنا أصوات متداخلة وضَجّة في الزقاق خلف الباب مباشرة.. سمعنا أحدهم يقترح تفجيره، لكنَّ زميلاً له لم يوافقه الرأي.. قال له بأنّ عليهم الالتفاف من الزقاق المجاور واختراق السطوح. وشاهدت ضويَّة متسمِّرة في مكانها وقد انحسرت الكوفيّة عن رأسها. اقتربتُ منها بهدوء حتى صرت في مواجهتها، لكنَّها بدت كما لو أنَّها لا تراني.. كان نظرها عائمًا في الفراغ المظلم.. ربَّتُّ على خدِّها، فنظرت بعينيَّ فجأة وأخذت ترتجف.. حاولت احتضانها

وتهدئتها، لكنّها دفعتني برفق وهي تصغي للأصوت المبهمة في الخارج..

ـ ما بك؟

ـ إششششش..

فاقتربت منها أكثر، وهمست بأذنها:

ـ ماذا هناك؟

نظرت إليَّ برعب حقيقيّ هذه المرّة، وهمست بصوت يشبه الفحيح:

ـ إنَّهم ليسوا رجال المُلّا جليل.

ـ حسنًا.. وما الفرق؟

ـ لا.. هناك فرق كبير.. هذا يعني أنّ جماعة المُلّا جليل فقدوا سيطرتهم على منطقتنا.

تلفَّتت برعب، وخطت باتّجاه الحوش نصف المعتم، قبل أن تردف:

ـ أمّ صبيح تدفع لجماعة المُلّا جليل ليتجاهلونا.. لكن هؤلاء لا نعرفهم.. هل فهمت الآن؟

ـ نعم فهمت.. وما العمل؟

ـ لا أدري.. علينا المكوث هنا حتى حلول الظلام.. الله يعدّي هذه الليلة على خير.

تزايد إطلاق النار في الخارج وتزايدت القنابل، وصار السقف المتهالك ينثّ فوق رأسينا الأتربة والسخام حتى تحوّلنا

إلى أشباح سود، وخبا بريق عينيْ ضويَّة، ومرّت علينا الساعات كأنَّها دهور مشتعلة بالخوف والقلق. كانت ضويَّة ترتجف وهي مقرفصة بحضني مثل حمامة وديعة، وأنا أمسح الهباب من فوق رأسها وأحاول تهدئتها.

ـ اعتقدت أنَّك لا تعرفين معنى الخوف.

ـ لست خائفة.. صدّقني! بل قلقة.. قلبي مطمئنّ وروحي يغمرها السلام..

ـ هل هذا بسبب إيمانك؟

ـ لا أدري.. أنا فتاة ساذجة، وقد تعرّفت على تلك الطقوس مؤخَّرًا، فوجدت فيها سلامًا لروحي الهائمة.

ـ هل أنت مندائيّة؟

نظرت بعينيَّ وابتسامة فاترة على فمها، ثم اعتدلت بجلستها وراحت تنفض الهباب عن شعرها.

ـ لا.. أنا من قرية نائية في الجنوب.. كنت أعاني الضياع ولم تتسنَّ لي الفرصة لأنجز تعليمي، حتى تعرّفت إلى تلك التعاليم والطقوس.

ـ من علّمك إيّاها؟

ـ مجر.. وأمّ غايب إلى حدّ ما.. قالا إنَّني ما زلت يافعة جدًّا، وعليَّ تطهير روحي وغسلها بالماء الجاري لتنال نفسي النقاء والبهاء الذي يغمر عالم النور.

ـ لكنْ كيف يمكن الانتماء لتلك الجماعة؟.. طالما اعتقدت أنّهم أمّة تكتسب دينها بالوراثة.

ـ لا أعرف.. قلت لك أنا مجرّد فتاة ساذجة يا عيني.. قالوا لي إنَّها شرعة حياة.

تأمّلتها بحبّ وهي واقفة باستسلام تسند ظهرها للجدار.. تلك الطفلة، أو قل ذلك الملاك المحيّر، قبل أن تقترب منِّي وتضع سبّابتها تحت ذقني لترفع رأسي بمواجهتها:

ـ أعرف أنَّك حائر وقلق على مصيري.. لكنْ أطمئنّ..

ثم أشارت برأسها إلى الخارج، وأردفت:

ـ كلّ هذا الخوف والموت الذي يترصَّد بنا في الخارج لا يخيفني.. ما يخيفني بحقّ هو أنت.

ـ كيف؟

ـ أنت رجل حقيقيّ وضَعك قدرك أمام اختبار عسير.. كما إنّ هند ليست امرأة عاديّة.. هي فيض من النور والمحبّة.. لذا أخشى عليك من التحطّم.

ـ حسنًا.. مارسي طقوسك كما يحلو لك.. لكنْ لا تحاولي إخافتي.

ـ أنا لا أحاول إخافتك.. على العكس.. أنا أريد أن أخبرك فقط.

ـ بِمَ؟..

ـ بأنّ هند ستجعلك تطير على محفّات المحبَّة، وستحرسك طول حياتك.

ـ أها.. شكرًا.. لقد طمّنتني.

ـ ألا تصدّق؟

اقتربت منّي بهدوء، وراحت تزيل الغبار عن غرّتي بحنوّ.. ولمحت بريقًا آسرًا في عينيها الواسعتين قبل أن تتقرفص بجانبي وتضع رأسها فوق كتفي.

مرّت ساعات ولم تهدأ المعركة في الأزقَّة المجاورة، وما فتأ القصف يبتعد ويقترب بالتناوب، ثم فجأة نهضت ضويَّة واتّجهت صوب بيت السلّم المُهَدَّم وراحت تصغي، فاشتعل الخوف برأسي، واقتربت منها متعثّرًا.

ـ ماذا هناك؟

ـ إششش.. اسمع!

حاولت الإصغاء، لكنَّني لم أسمع شيئًا، فهمست برعب ثانية:

ـ ماذا هناك؟ أرعبتني!

ـ ألا تسمع؟.. إنَّهم يحاولون إحداث فتحة في الجدار!

ـ مَن؟..

ـ البنات.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ أعرف.. لقد عشت تلك اللحظات.. هل تذكر الخزانة الكبيرة في غرفة لوصة؟.. خلفها فتحة مخبّأة عملناها لمثل هذه الحالات.. الجميع يدخلون في الخزانة، ويتسلَّلون من الفتحة.. وتُعيد آخر فتاة إغلاق باب الخزانة..

ـ هل البيت قريب من هنا؟

ـ بيننا بيت واحد من هنا.. ثمَّة طريقتان للوصول إليهم.. إمّا عبر السطوح أو إحداث فتحة في الجدار!

كانت ضويَّة تتحدَّث من دون مبالاة هذه المرّة، وخُيِّل إليَّ أنّ البريق الغامض قد عاد إلى عينيها بعد أن طوّحت بالغترة المسخّمة بعيدًا وخلعت السترة الفضفاضة، وصارت تخطر وسط الحوش بثوبها الأبيض، ثم بدأت تصعد السلّم..

ـ إلى أين؟

استدارت نحوي، وطيف ابتسامة ما على محيّاها:

ـ لا تخف.. سأدخل المرحاض..

كان المرحاض وسط السلّم على بعد أربع درجات، وكان بابه مخلوعًا، وثمَّة ستارة من الجوخ تستره.. دخلت ضويَّة المرحاض وسمعت وشيش بولها، فجلست قرب السلّم متقرفصًا، بينما لفتت انتباهي أصوات طرْق خفيف على الجدار المجاور.. وسرعان ما أخذت الحجارة تتساقط في جوف أحد الغرف المظلمة.

نزلت ضويَّة راكضة باتّجاه الغرفة، وراحت تزيح بقايا الحجر والتراب، فهرعت لمساعدتها..

ـ ماذا يجري؟.. أخبريني..

ـ إنَّهم يحاولون إحداث فتحة في الجدار لإخراجنا.. ما بك؟

ـ لكن كيف عرفت ذلك؟.. ربّما يكون أحد ما غيرهم!

استمرَّت ضويَّة بالحفر غير عابئة بملاحظتي، فاضطررت لمساعدتها، وبعد ما يقرب الساعة من الحفر، انهارت آخر طابوقة، وانبثق في عينينا ضوء خافت من مصباح كان يحمله أحدهم، وسمعت صوت هند..

ـ ويلك ضويَّة.. كيف تقدمين على هكذا عمل جنوني؟ سيكون حسابك عسيرًا معي.. أين أستاذ علي؟.. هل هو معك؟

نظرت إليَّ ضويَّة فرحة، وهمست:

ـ ألم أقل لك.

ثم بصوت عال:

ـ نعم معي.. نحن بخير.. لا تقلقي يا حبيبتي!

وسَّعنا الفتحة حتى صارت تسع لجسدينا، مرَرتُ ضويَّة أوَّل الأمر، وسمعت هند في الجانب الآخر تُعنِّفها، قبل أن أمرّر جسدي خلفها.

* * *

حلَّقت بعض فواخت فوق مرقد الشيخ عُمر السهروردي والمقبرة المحيطة، وخطفت بعض النسوة بين القبور البعيدة، ومن مكان ما تناهى إلى مسامعنا صوت قارئ يُرتِّل القرآن بصوت شجيّ. كانت زينب تتعثَّر بين القبور الدارسة وتتوقَّف بين الحين والآخر لتتأكّد من الطريق، بينما تبعها أخوتها الصغار غير عابئين.

ـ هل أضعت الطريق؟..

ـ لا.. أعرفه. لكن هذه الشجرة دوَّختني.. لم تكن موجودة في المرَّة السابقة.

كانت تسير بسرعة وتتقافز جذلى بين القبور، حتى اختفت عن ناظري خلف أحدها، وكنت مضطرًّا للسير ببطء وأنا أقود الصغار، كان أحدهم يحمل قنِّينة بلاستيكيّة من مياه زرقاء اقترحت زينب شراءها من أحد الباعة عند باب المقبرة، بينما حمل أصغرهم زهرة حندقوق صفراء قطفها من نبتة مررنا قربها. توقّفت قليلاً باحثًا عن

زينب قبل أن يظهر رأسها فجأة من خلف قبر كبير وهي تنادي:

ـ وجدته.. إنَّه هنا.. تعالوا.

اتّجهنا صوبها أنا والصغار. كان القبر صغيرًا جدًّا وواطئًا، كما لو كان يتَدَثَّر أو يلوذ بالقبر الكبير العالي الذي بجانبه. تَجَمَّع الصغار حول القبر، ورموا أجسادهم عليه معانقين حجارته المَوَشَّاة بالجصّ الأبيض، بينما جَثَت زينب أمامه صامتة وهي تتطلّع لصورة قديمة لأمّها موضوعة في إطار زجاجي تحت الشاهدة الحجريّة، صورة بالأسود والأبيض بدت فيها أمّها شابَّة تتطلَّع للكاميرا بنظرة وديعة أو معاتبة، وهي ترتدي فستانًا أسود ذا أكمام طويلة موشّى بأزهار بيض، في حين اختلط سواد شعرها الطويل بسواد العباءة المنحسرة.

ـ ماما.. هذا أستاذ علي الذي حكيت لكِ عنه جاء ليسلّم عليك.

اِقشَعرَّ بدني فجأة وأنا أسمع عبارة زينب العفويّة تلك، وأحسست برهبة وخوف، وانقبض قلبي، لكنَّ زينب واصلت حديثها إلى أمّها غير عابئة:

ـ هو رجل طيِّب.. ساعدني كثيرًا، واشترى بعض اللُّعَب لأخوتي.. واليوم تغدّينا كُلّنا في المطعم.

التفتت نحوي زينب مبتسمة، كما لو كانت تخاطب شخصًا حيًّا.. ثم أردفت من دون أن تزيح نظراتها عنّي:

ـ هل تعلمين ماذا يقول عنكِ؟.. يقول عنك إنَّك جميلة جدًّا وشعرك غجريّ.

أدركت زينب حيرتي وانبهاتي وأنا أقف منذهلاً أمام القبر، فقطعت حديثها لأمّها، ووقفت بمواجهتي:

ـ ما بك؟.. هل أنت متضايق؟

نظرت إلى زينب وأنا أشعر بالمرارة واليأس، كانت غير مبالية تمامًا، وتنظر إليَّ ببراءة وحُبّ واندهاش:

ـ لا.. أبدًا.. مصدوم قليلاً.. هذه أوَّل مرَّة أحضر لمقبرة.

ـ أووووه.. ألم أقل لك؟.. أنت تبدو غريبًا.. هل تريد أن نرجع؟

ـ لا.. لا.. أبدًا.. أرجوكِ. تَحَدَّثي معها.. أخبريها عن كلّ شيء ترغبين فيه..

عادت زينب للحديث مع أمّها من جديد، بينما جلست فوق دكّة قريبة أتأمّل الصورة.. وجه مستطيل وأنف طويل نسبيًّا وشفتان مكتنزتان ووجنتان بارزتان، لكنّ النظرة العميقة المتسائلة والغامضة هي من خَمَش روحي وأثار عشرات الأسئلة برأسي.

ـ علي.. علي..

انبثق الصوت فجأة بأذني آتيًا من مكان ما في المقبرة، وخطف طيف امرأة مُتلفّعة بالعباءة من بين القبور، تبعت المرأة بخطًى مُتعثِّرة..

ـ علي.. علي..

جاء الصوت من الجهة المقابلة هذه المرَّة، أو هكذا خُيِّل إليَّ، فعدت أدراجي صوب القبر، لكنَّني لم أجد زينب، بينما لمحت أخوتها الصغار يلعبون تحت قبر أخضر موشّى بسياج

حديديّ.. سقطت قذيفة هاون في المقبرة، فارتفع عمود هائل من التراب والحجارة التي تساقطت مثل المطر فوق رؤوسنا، وحلّقت الفواخت جافلة تضرب بأجنحتها الكبيرة، ولمحت زينب من بعيد تغسل قبر أمّها بالماء الملوّن الذي ابتعته لها، بينما بدا أخوتها الصغار يلهون بلعبهم الصغيرة غير عابئين بالتراب الذي غَطّى كلّ شيء.

ـ علي.. علي..

عاد الصوت المُنادي من جديد، لكنَّه أبعد هذه المرَّة! كان نظري غائمًا والتراب تحت جفوني يحرقني بشدّة، وعبثًا حاولت تمييز قامة المرأة التي انبثقت فجأة أمامي. تراجعتْ ببطء، كما لو أنَّها فوجئت بي، حتى اختفت خلف قبر صغير مبنيٍّ من الطابوق الرخيص وثمَّة ورود ذابلة وأغصان آس مُتيبِّسة تُغطّي الصورة الصغيرة خلف المشبّك الحديديّ الصدئ. مَددت يدي الراجفة ببطء وأزحت أغصان الآس والورود الذابلة، وهالني منظر الشعر المُجعَّد والنُّقْرتان الصغيرتان على جانبيِّ الفم الصغير المُبتسم، وسمعت خفق أجنحة كبيرة لطائر ما حلَّق فجأة في فضاء المقبرة، كان كبيرًا جدًّا في الواقع، عرفت ذلك من قوّة الخفق الآفل في سماء المدينة المُحترقة.

* * *

شعرت نيڤين بالحيرة وهي تُعدّل التخطيط الذي وضعته لأمّ زينب بناءً على وصفي لها، عادت ومسحت الحاجبين الرفيعين، ورسمت بدلهما حاجبين غير مشذّبين قبل أن تفرد الرسمة أمامي متسائلة:

ـ ما رأيك؟.. هكذا تبدو؟..

ـ نعم.. هذه الملامح أقرب للصورة التي رأيتها يا عزيزتي.

تركت دفتر الرسم على الطاولة، وذهبت للمطبخ لتعدّ لنا القهوة. تأمَّلت الصورة من جديد، كيف تسنّى لها تجسيد هذه النظرة الغامضة؟.. لم أصف لها طبيعة النظرة في الواقع! هل استبطنتها من خيالها؟.. أم مُجرّد تخاطر ما؟

جاءني صوتها من المطبخ متسائلاً:

ـ لماذا لم تلتقط لها صورة وتريحنا؟.. ألم تكن الكاميرا معك؟

تذكّرت الكاميرا.. لقد كانت طول الوقت معي في الحقيبة الصغيرة، لكنَّني لم أفكِّر بالتقاط بعض الصور، ربّما كانت الأحداث المتوالية قد شلَّت تفكيري وقتها.

وضعت نيڤين القهوة على الطاولة، وعادت تنثر خطوط الرصاص على الورقة بطرف إصبعها الصغير برشاقة.. قالت من دون أن تنظر إليَّ:

ـ هل تعرف لماذا لم تلتقط الصور؟

ـ لماذا؟..

ـ لأنَّها ببساطة غير موجودة سوى في خيالك.

كان يحلو لنيڤين استفزازي كلّما حكيت لها عمّا يواجهني في الأيّام الأخيرة، حتى في الأوقات التي كانت فيها تجاريني في الحديث، أو تسألني عن بعض التفصيلات، كانت تسايرني من دون قناعة تذكر، كنت أعرف ذلك وأتألّم، لكنَّني لم أشأ تعكير مزاجها.. كانت تجلس قبالتي مثل ملاك صغير وهي تثني ساقيها تحتها، وتضع قلم الرصاص بين شفتيها في حركة طالما أحببتها.. نهضت فجأة بعد أن أطفأت سيكارتي..

ـ هيّا يا عزيزتي.. ارتدي ملابسك.. سنخرج.

ـ إلى أين؟.. ألا تريد إكمال التخطيطات؟

ـ لا.. سنكملها لاحقًا.. أريد أن أصطحبك لتتعرّفي إلى هند.

ـ ماذا؟.. هل جننت؟

ـ أرجوكِ.. نَفّذي لي تلك الرغبة.. أرجوكِ.

ـ حسنًا.. حسنًا.. إذا كان هذا يريحك.

نهضت وارتدت ملابسها بسرعة، وخرجنا إلى الشارع المُكتظّ بالحركة والمارّة..

نزلنا من سيَّارة الأجرة قرب ساحة الميدان، ومن هناك دخلنا الشارع الفرعي حيث كان سوق الهرج، وسرعان ما تلاقفتنا الأزقَّة الضيّقة. كانت نيڤين تتبعني مُندهشة، وبين الحين والآخر تلتقط الصور للبيوت الهرمة والأفاريز الآجريّة والمتسوِّلين. كانت مستسلمة تمامًا لإرادتي ولم تعد تناقشني، وكلّما دخلنا زقاقًا خاطئًا، تصغي بحبّ وهي مبتسمة لتبريراتي، حتى وصلنا زقاقًا خُيَّل إليَّ أنَّني أعرفه. نعم.. لا يمكن أن أكون مخطئًا، إنَّه هو الزقاق نفسه حيث كانت دكّانة مجر!

ـ انظري.. ها هو الزقاق!

ـ أيّ زقاق؟.. تقصد الذي فيه بيت أمّ صبيح؟

ـ لا.. الزقاق الذي توجد فيه دكّانة مجر.

ـ دكّانة مَن؟..

ـ مجر.. ألم أحدّثك عن مجر؟

وقفت نيڤين مُندهشة أمام الدكّانة الصغيرة، وهي تتأمّل محتوياتها العتيقة من السيوف الصدئة والإطارات الفِضِّيَّة وبعض المسبحات القديمة. وقرب الجدار المقوَّس، لمحت مجر يجلس على صفيحة مقلوبة ويُدخِّن بهدوء كعادته، أمسكت بذراع نيڤين وجَرَرْتُها برفق من دون أن أرفع نظري عن مجر..

ـ هذا هو مجر يجلس هناك.. ألم أقل لكِ.. تعالي لأعرّفك إليه.

فوجئتْ نيڤين واقتربت ببطء، وهي تتطلَّع لهيئة مجر الغريبة، العصابة الحمراء المُنقّطة بالأبيض نفسها، شارباه المُصْفَرّان إثر دخان السكائر، والتجعيدتان الغريبتان على جانبيْ فمه، وابتسامته الغامضة. اقتربت منه بفرح وارتياح.. أخيرًا، سأبرهن لنيڤين حقيقة حكايتي..

ـ مرحبًا يا عمّ مجر..

ـ هلا يابا.. هلا..

فوجئت ببرودة رَدّه، فاستدرت ووقفت أمامه تمامًا..

ـ أنا علي.. يا عمّ مجر! هل نسيتني؟

بدا ينظر في الفراغ غير مبال بإلحاحي.

ـ عمّ مجر؟..

نظر صوبي باستغراب:

ـ هل تعرفني؟

ـ طبعًا أعرفك!.. أنا علي موحان.. الصحفي.. صديق هند!

ـ هند؟.. أيّة هند؟

سقط الأمر بيدي، وازدادت حيرة نيڤين التي صارت ترمقني بقلق، ومَدَّت يدها باتّجاهي محاولة ثنيي عن المواصلة، لكنَّني دُهشت من رَدّة فعل مجر الغريبة.. جَثوت أمامه متوسِّلاً:

ـ عمّ مجر.. الله يخلِّيك تذكّرني.. البارحة كنّا معًا في بيت أمّ صبيح!!

فوجئ بكلامي، ونظر إليَّ مستغربًا:

ـ هل تعرف بيت أمّ صبيح؟

ـ طبعًا أعرفه.. أنا صديق هند.. طالما سهرنا على السطح، وأنت تحكي لنا عن الكواكب وتشعل لنا النار لتدفّئنا..

نهض مجر وواجه الحائط، وسحب نَفَسًا طويلاً من سيكارته قبل أن ينفثه على شكل خطّ طويل:

ـ متى كنت عندهم، قلت لي؟

ـ البارحة كنّا معًا.. هل نسيت؟

استدار ببطء وواجهني، ثم استرق النظر لنيڤين الواقفة على مقربة تحمل كاميرتها:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد الذهاب إلى بيت أمّ صبيح.

ـ لِمَ تريد الذهاب إلى هناك؟..

ـ أريد أن أرى هند.. أقصد هند والبنات الأخريات.. هذه صديقتي نيڤين جاءت لتتعرَّف إليهم.

نظر إليَّ مجر باستغراب.. لكنْ على الرّغم من ذلك، ظَلَّت التجعيدتان الغريبتان على خدّيه ترسمان ابتسامة مطمئنة نوعًا ما. سار بتثاقل في الزقاق المقابل ونحن نتبعه، ومن حين لآخر تَجرّني نيڤين من ذراعي مُحذِّرة، أو متسائلة، فأطمئنها بحركة من يدي وأسير خلف مجر، الذي بات يلتفت من حين لآخر مُتفحِّصًا هيئتي، كما لو كان يراني لأوَّل مرَّة! وكلّما أوغلنا في التقدُّم، ضاقت الأزقَّة واختفى المارّة وانتشرت الظلال المتطاولة بعد اختفاء الشمس خلف النهر، وشيئًا فشيئًا، بدأت نيڤين تشعر بالخوف، وكفَّت عن التقاط الصور، وصارت تمسك بذراعي

وتلتصق بي. توقّف مجر فجأة واستدار ناحيتنا:

ـ هل أنت واثق من أنَّك تعرف بيت أمّ صبيح؟

ـ طبعًا يا عمّ مجر.. أنا صديقهم.

فنظر إلى نيڤين كأنَّه يريد تأكيدًا منها، فَنَدستُ نيڤين لتؤكّد له، وبعد تَردّد أومأت له برأسها موافقة، فاستدار وواصل سيره المتثاقل. همست نيڤين بأذني:

ـ هل أنت واثق من أنَّه يعرف الطريق؟

ـ نعم.. أنا أعرفه جيِّدًا كما أعرفك.. اطمئنِّي.

انعطف مجر فجأة في زقاق جانبيّ، وما إن تبعناه حتى صرنا أمام الباب الخشبيّ الذي يعتلي الدكّات الثلاث المُهَدَّمة. كانت خيوط الشمس تنبثق من شقوقه الكبيرة، وبدت ظلْفته العليا مائلة وآيلة للسقوط. شعرت بفرح طاغ، وجَرَرْتُ نيڤين من ذراعها باتّجاه المنزل:

ـ هذا هو بيت أمّ صبيح الذي حدَّثتك عنه.. ألم أقل لك؟.. ها؟.. هل ستصدّقيني الآن؟

كانت نيڤين مَبْهوتة وهي تتطلَّع للباب الموارب الذي صرت أقرعه بقوّة، وأنا أنادي:

ـ أمّ صبيح.. يا أمّ صبيح.

بينما وقف مجر على مبعدة يراقب بهدوء. كَرَّرت الطرْق أكثر من مرَّة، وهتفت بقوّة أكبر:

ـ أمّ صبيح.. يا أمّ صبيح.

وفجأة، انهار الباب المتهالك تحت الطرْق، وانفرجت ظلفتاه

على مصراعيهما ليكشف عن جوف مُظلم تملأه أكوام الحجارة والأزبال. اختفت الستارة، كما اختفى الطَبّاخ الصغير في الزاوية. وما إن تقدَّمت قليلاً نحو الباحة، حتى هالني منظر الحجرات التي انهارت سقوفها فوق قطع الأثاث القديم، وتدلَّت الأسلاك المعدنيّة من الطابق العلويّ حيث غرفة هند التي لم يبق منها سوى الجدار الأمامي، وبَدت غارقة بشمس الغروب. شلَّتني الدهشة ولم أعد قادرًا على الحركة أو التفكير، بينما راحت نيڤين تمسح مكوِّنات البيت المُهَدَّم بنظرها. حاولت التقدّم خطوة إلى الأمام باتّجاه غرفة ضويَّة، فتعثرت بحذاء قديم وقرقعت علبة معدنيّة تحت قدمي، وحلَّق طائر ما في سماء الحوش الموحش، ضاربًا الهواء المتخثِّر بأجنحته الجبَّارة من دون أن أراه..

ـ هل هذا هو البيت الذي قصدته؟

التفتُّ حيث الصوت، كان مجر يقف في المجاز نصف المُعتم وهو يَلفّ سيكارته بهدوء، تقدّمت نحوه:

ـ نعم هذا هو.. ولكنْ..

ـ تقصد لِمَ هو خربة هكذا؟.. حسنًا اتبعني.

وراح مجر يتسلَّق كوم الحجارة والأنقاض وسط الحوش، وخطا باتّجاه إحدى الغرف..

ـ هذه غرفة إخلاص.. أقصد لوصة.. هل تعرفها؟

ـ طبعًا.. أعرفها، يا عمّ مجر.

ـ حسنًا.. انظر إلى تلك الخزانة الكبيرة تحت الأنقاض.. هل تراها؟

ـ نعم أراها..

ـ لقد كانت تخفي فتحة خلفها في الجدار تؤدّي إلى البيت المجاور، عملتها الفتيات للتسلّل منها في الحالات الطارئة.

اتّكأ مجر إلى الجدار المُهَدَّم وسحب نَفَسًا من سيكارته، ثم التفت نحونا أنا ونيڤين، وبدت ابتسامته الغريبة واضحة..

ـ في تلك الليلة، نزل الجميع إلى هذه الغرفة، وتسلَّلوا من الفتحة التي في الجدار عبر الخزانة إلى البيت المجاور.. كان من المفروض وجود فتحة أخرى مقابلة توصلهم إلى الزقاق الخلفيّ.. لكن قذيفة هاون ما هَدَّمت الجدار وردمت الفتحة على ما يبدو، وأضحى البيت المجاور خربة من دون سقف تتَكوَّم في باحته بقايا الطوب، فتَكوَّم الجميع، بعضهم فوق بعض، في غرفة صغيرة. عندما دخل المُسَلَّحون يحملون سكاكين ضخمة وبلطات، لم يصرخن أو يتوسّلن، حاولن حماية ضويَّة بتخبئتها خلفهنّ! هل تعرف ضويَّة طفلتهنّ الشقيّة التي كنّ يسرِّبن مشاعر أمومتهنّ من خلالها؟

ـ نعم أعرفها.

ـ حسنًا.. كانت آخر محاولاتهنّ لإثبات إنسانيّتهنّ.. لكنْ من دون جدوى! فقد أخذ المطر بالهطول فجأة، وراح يغسل بقايا الدم والسخام ويخلّف عشرات السواقي السود الدقيقة، قبل أن تغور المياه المُسخمة بعيدًا في جوف الأساسات.

لم ينقطع المطر لثلاثة أيّام متواصلة. كانت الرؤوس المزروعة فوق الطوب مُبَلَّلة بالكامل وخصلات الشعر المبلول ملتصقة على الوجوه، لكنّ الماء غسل بقايا الدم الذي ظَلّ يجري

كالمزاريب ليومين كاملين.. كنت هناك أحرسها طول الوقت، وكُلَّما اقتربت القطط رميتها بالحجارة.. حتى توقّف المطر وانقشعت الغيوم وظهر القمر في كبد السماء، عندها جاءت أمّ غايب وجمعت الرؤوس بكيس من الجوخ، ومضت بها باتّجاه مقبرة باب المعظَّم.. بينما رسمت قطرات الدم المخلوط بالمياه خطًّا فسفوريًّا يمتدّ من الخرائب حتى المقبرة.. تلك القطرات ما زالت تَشعّ في الليالي المقمرة!

كان صوت مجر يختفي ويعود بأذني، ولم أعد واثقًا أنَّه صوته هو.. وخُيِّل إليَّ أنَّني أسمع أصوات الفتيات تنبثق من الجدران تخالطها ضحكات مُتقطِّعة.. حتى إنَّني أكاد أميِّز من بينها صوت هند بنبرته العذبة، ومن فتحة في الجدار لمحت الزقاق في ضوء الغسق الآفل، وهالني منظر الناس وهم يسيرون باتّجاه النهر بهدوء غير عابئين بالقنابل والرصاص.. كانوا ينسابون بنعومة وصمت، ولا تكاد أقدامهم تلامس الأرض.. ولمحت بينهم جميع من أعرف.. الفتيات ومجر وأمّ صبيح والصِبْيَة الذين رأيتهم في بيت أمّ غايب وزينب وإخوتها الصغار.. حتى نيڤين وسالم. كانت أسلاك الشمس الأخيرة تسكب على وجوههم ضوءًا فضِّيًّا غريبًا.. وفي لحظة ما، كدت أدخل في فتحة الجدار، لولا أنّ كفّ نيڤين الصغير أمسك بكتفي من الخلف، وكدت أسقط مغميًّا عليَّ، وصرت أطلق صوتًا يشبه العواء المكتوم ونيڤين تحتضنني وتهدّئ من روعي، ثم تركتني قرب مجر، وراحت تلتقط الصور للغرف المُظلمة وأكوام الأنقاض والسقوف المُنهارة، قبل أن تقترب منّا وتخرج علبة

سكائرها من الحقيبة المُعلَّقة بكتفها وتدخّن. خرج مجر إلى الزقاق الصغير وتبعته نيڤين، وانتظرا هناك حتى خرجت مُتعثِّرًا.. فأعاد مجر الرتَاج إلى الباب، ثم نفض يديه وأقفل راجعًا، فتبعناه واجميْن بصمت. كنت أرتجف بشدّة ونظري مُشَوَّش وغائم، بينما أمسكت نيڤين بكفّي وراحت تمسحها بحنوٍّ، وقرب دكّانته ودَّعناه مبتعديْن، لكنَّ نيڤين عادت صوبه وسألته:

ـ متى حدث ذلك يا عمّ مجر؟

ـ تقصدين الانهيار الكبير؟.. إنَّه يحدث يوميًّا يا عزيزتي.. ألم تنظري من حولك؟

ـ لا.. أقصد حكاية الفتيات.

ـ الفتيات؟.. وما يهمّ؟.. لقد حدث ذلك منذ زمن.. لا أدري.. عشر سنين ربّما؟.. ما الفرق؟

ثم أشار نحوي بسبّابته المقوّسة التي أعرفها جيِّدًا، وقال لنيڤين:

ـ انتبهي له.. ما زال لم يخض التجربة على ما يبدو.

كنت حائرًا وساقاي لا تكادان تحملاني، وقلبي يخفق بشِّدّة مثل حمامة محبوسة وسط أضلاعي المضطرمة، وما فتأ نظري يغيم ويتَشوَّش.. وشعرت بتيّار غامض يسري بجسدي كُلّه عبر يد نيڤين الصغيرة القابضة على يدي برحمة، وقبل أن يغشى بصري، لمحت وجهها يضيء بغموض.. وقدماها الصغيرتان لا تكادان تلامسان الأرض.. ثم أطبق سكون لذيذ وبهتت الأصوات من حولي، ولم أعد أتذكّر شيئًا.

صدر للمؤلِّف

* ثُغور الماء ـ رواية، ١٩٨٣.
* غرفة مُضاءة لفاطِمة ـ قصص، ١٩٨٦.
* طواف مُتَّصِل ـ رواية، ١٩٨٨.
* نصوص المِرقاة ـ قصص، ١٩٩٦.
* قصص قصيرة (بالهولنديّة)، ٢٠١٠ Dank je wel Olifant

تصميم الغلاف نجاح طاهر

لقطة مكثَّفة ومُرَكَّزة لحياة بغداد السرِّيَّة والمُعتمة، البائسة والمُحزنة التي سبّبها حكمٌ شموليٌّ ثم احتلالٌ أميركي.

تتأرجح حيواتُ هند وضويَّة ونيفين بين أمواج الانفجارات المرعبة والعالم الفانتازيّ الذي يقف على رأسه "مجر"، الفيلسوفُ الصوفيُّ الغريب.

وتأتي نهايةُ الرواية، ككائناتها الضوئيَّة، صادمةً وموجعة.

Arab_Books

محمّد حيّاوي: كاتبٌ عراقيّ مقيم في هولندا. حاصل على ماجستير في التصميم الغرافيكيّ. صدرتْ له ثلاثُ روايات: ثغور الماء، غرفة مضاءة لفاطمة، طواف متّصل.

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-505-5
9789953895055